Battanäilii

ترجمات

چوزيف كونراد

في قلب الظلام

رواية

الترجمة عن الإنجليزية:

سامح الجباس

JOSEPH CONRAD

HEART OF DARKNESS

NOVEL

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

في قلب الظلام

جوزيف كونراد

ترجمة: سامح الجباس

عن الرواية..

حينما كُنتُ صغيرًا أحببتُ الخرائط، وكُنتُ أنظر ساعاتٍ إلى أمريكا الجنوبيَّة وإفريقيا وأستراليا فأضيع في أمجاد الاستكشاف. كانت هناك فراغات كثيرة على الأرض في ذلك الوقت، فإذا ما بدا لي أن إحداها تدعوني لزيارتها (وقد كانت كلها كذلك) أشرتُ إليها بإصبعي وقُلتُ عندما أكبر سأذهب إلى هناك. كان القُطب الشَّمالي أحد هذه الأماكن على ما أذكر، لكنني لم أذهب إلى هناك حتى الآن، ولن أُحاول ذلك فيما بعد. لقد فَقَدَ سحره. كانت بعض هذه الأماكن مُبعثرةً حول خطِّ الاستواء، وفي بُقع مُختلفة أُخرى شماله، أو جنوبه، ولقد ذهبت إلى بعضها و... حسنًا لن نتكلَّم عن ذلك، لكنَّ هناك مكانًا، وكان الأكبر والأكثر فراغًا أحببته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١)

تَمَايَلَ المَرْكَبُ «نيلِّلي» المُتَجَوِّلُ في مَرْسَاهُ، دون خفقةٍ من شراعٍ، وَسَكَنَ مرتاحًا. كان المَدُّ مُرتفعًا، والرِّيحُ هادئةً تقريبًا، ولم يكُن أمامه -وقد توجَّهَ نحو أسفل النَّهر- إلا انتظارُ الجَزْرِ.

كان مُلتقى التِّيمز بالبحر يمتدُّ أمامنا بدايةَ طريقٍ مائيٍّ لا ينتهي، وفي نهاية مرمى البصر امتزج البحر بالسَّماء. وفي الفراغ المُضاء بَدَت الأشرِعةُ الدَّاكنةُ للقواربِ المُرتفعة مع المَدِّ ساطعةً، مثل عناقيد كِتَّانيَّة حمراءَ مُدَبَّبة الرُّؤوس، وقد التمعت فوقها رُؤوس الصَّواري، وعلى الشَّواطئ المُنخفضة التي امتدَّت نحو البحر باستواء مُتلاشٍ استقرَّ ضبابٌ خفيفٌ.

كان الهواءُ ساكنًا فوق «جريفسند»، ولكنه من بعيد أخذ يتكاثف قاتمًا، مثل الحداد، ويجثُم ساكنًا فوق أكبر وأعظم مدينة على الأرض.

كان مُدير الشَّركات رُبَّانَنَا ومُضيفَنا. راقبنا نحن الأربعة ظهره وهو يجلس في مُقدِّمة السَّفينة ينظر باتِّجاه البحر، ولم يكُن هناك أيُّ شيءٍ آخرَ أكثر من ذلك انتماءً للبحر. بدا مثل المَلَّاح الذي يعتبره البحَّار الثِّقة المُتجسِّدة، وكان من الصَّعب إدراك حقيقة أن عمله هذا ليس هناك في المَصَبِّ المُتألِّق؛ بل خلفه، داخل الظَّلام الجاثم.

كان يربطنا -كما قُلتُ من قبل- ميثاقُ البحر الذي كان إلى جانب ربطه قُلوبَنَا خلال أوقات الفراق الطَّويلة، يجعل بعضًا مِنَّا مُتسامحًا تجاه حكايات

البعض الآخَر، وحتى قناعاتنا. أخذ المُحامي -أفضل الرِّفاق الكبار- الوسادة الوحيدة عندنا، واستلقى على السِّجَّادة الوحيدة على ظهر المَرْكَب؛ فهو الأكبرُ سِنًّا ومكانةً، وكان المُحاسب قد أحضر صندوقَ الدُّومينو وبدأ يُشيِّد التَّشكيلات الهندسيَّة بالقِطَع العظميَّة، أمَّا «مارلو» فجلس مُتربِّعًا عند مُؤَخِّرة المَرْكَب وقد اتَّكأ على الصَّاري. كان خَدَّاه غائرين، وبشرته صفراءَ، وظهره مُستقيمًا. اتَّخذ هيئة راهب، فبدا بيديه المنثورتين براحتيهما في اتِّجاه الخارج كأنه إله معبود. تأكَّد المُدير من وضع المرساة، ثم شقَّ طريقه ليجلس بيننا. تبادلنا بعض الكلمات بكسلٍ، ثم ساد صمتٌ على ظهر المَرْكَب، ولسببٍ أو لآخرَ لم نبدأ لُعبة الدُّومينو، وغمرنا إحساس بالتَّأمُّل، وبأنَّنا لا نصلح لغير إمعان النَّظر في سُكون. كان النَّهار ينتهي بصفاءٍ من الأَلَق الرَّائع وقد التمعت صفحة الماء بهدوءٍ. وكانت السَّماء الصَّافية تبدو مساحة رقيقة من الضَّوء الصَّافي، والضَّباب فوق مُستنقعات «إسكس»، مثل نسيج برَّاق شفَّاف تدلَّى من المُرتفعات الشَّجريَّة الدَّاخليَّة مُخفيًا الشَّواطئ المُنخفضة بطيَّاته الشَّفَّافة، إلا أن الظَّلاميَّة التي بدأت تجثُم فوق النِّهايات الغربيَّة أخذت تزداد اسوِدَادًا كل دقيقة كما لو أن اقتراب الشَّمس قد أثار غضبها.

أخيرًا، غاصت الشَّمس بعد انحدار غير ملحوظ، وتحوَّل اللَّون الأبيض المُتوهِّج إلى أحمرَ مُعتم لا شُعاع فيه، ولا حرارة، كما لو كانت على وشك الغياب فجأةً بفعل مسحة من تلك الظَّلاميَّة المُحَلِّقة فوق جمع من الرِّجال.

فجأةً، حدث تغيُّر على المياه؛ فأصبح الصَّفاء أقلَّ ألَقًا، ولكن أكثر عُمقًا، واستراح النَّهر العتيق بضفَّتيه العريضتين ساكنًا عند انتهاء النَّهار، بعد عصور

من خدمة الجنس الذي استوطن على ضفَّتيه، وانتشر بتكبُّر هادئ يليق بمَمَرٍّ مائيٍّ مُتَّجِهًا إلى أقصى الأرض. نظرنا إلى الجدول الوقور ليس بفورة نهار قصير تأتي وتذهب في حركة أبديَّة، بل بالضَّوء المهيب لذكريات دائمة. حقًّا ليس أسهل على إنسان «يتبع البحر» كما يذهب المُصطلح، بحُبٍّ وتقديسٍ من استحضار روح الماضي البعيد على ضفاف التِّيمز المُنخفضة. يتردَّد تيَّار المَدِّ والجَزْرِ بلا توقُّف مُتخَمًا بذكريات عن الرِّجال والسُّفُن التي حملها إلى الرَّاحة في الأوطان، أو إلى معارك البحار. لقد عرف وخدم كل الرِّجال الذين تفتخر بهم الأُمَّة من السِّير «فرانسيس دريك» إلى السِّير «جون فرانكلين»؛ فكلهم فرسان، سواء حصلوا على اللَّقب أم لم يحصلوا عليه. إنَّهم فرسان البحر الجوَّالون العُظماء، وقد حمل كل السُّفُن التي تتلألأ أسماؤها مثل الجواهر في ليل الزَّمَن من «جولدن هايند» التي عادت بكنز تضمُّه بين جوانبها، تزورها الملكة فتنفذ نحو الحكاية الكبيرة، حتى «إيريبوس»، و«تيرور» تُرسَلان إلى الغزو فلا تعودان. عَرَفَ السُّفُنَ والرِّجالَ الذين أبحروا من «دتفورد» و«جرينتش» و«إريث» ومُغامري ومُستوطني سُفُن مُلوك وسُفُن الرِّجال في «تشاينج»، ربابنة وأُمراء بحر «الدُّخلاء» السُّود للتِّجارة الشَّرقيَّة، و«الجنرالات» المُفوَّضين لأساطيل الهند الشَّرقيَّة، الباحثين عن الذَّهَب، والسَّاعين إلى الشُّهرة، كلهم خرجوا مع ذلك النَّهر يمتشقون السُّيوف، وأحيانًا يحملون المصابيح؛ رُسُل القُوَّة على الأرض وحاملي شرارة النَّار المُقدَّسة. أيُّ عظمة لم تطُف على جُزُر ذلك النَّهر مُتَّجِهة إلى سِرِّ الأرض المجهولة؛ أحلام الرِّجال، وبذور الدُّوَل، وجراثيم الإمبراطوريَّات.

غرُبت الشَّمس، وَغَسَقَ اللَّيل على النَّهر، وبدأت الأضواء تظهر على امتداد الشَّاطئ، وأرسلت منارة «تشابمان» القائمة على ثلاث أرجُل في مُنبسط مُوحِل ضوءًا قويًّا، وتحرَّكت أضواء السُّفُن في مَمرِّها حركةَ أضواءٍ عظيمة ترتفع وتنخفض. وفي أقصى الغرب قُربَ النِّهايات العالية كانت علامة فأل سيِّئ في السَّماء لا تزال تُوحي بوجود المدنية الوحشيَّة، ظلاميَّة جاثمة في ضوء النَّهار، ونور مُلتهب تحت النُّجوم.

«وكان هذا أيضًا»، قال «مارلو» فجأةً.. «أحد الأماكن المُظلمة على الأرض».

كان الوحيد بيننا الذي لم يَزَل «يتبع البحر»، وكان أسوأ ما يمكن أن يُقال عنه إنه لم يكُن يُمثِّل طبقته. كان رجُلَ بحرٍ، لكنه كان جوَّالًا أيضًا، بينما يعيش مُعظم البحَّارة -إذا جاز التَّعبير- حياة استرخاء، فقد اعتادت عقولهم البقاء في المنزل، والمنزل معهم دائمًا هو السَّفينة، وكذلك بلدهم البحر. لَكَمْ تُشبه السَّفينة كل سفينة أُخرى. أمَّا البحر فهو نفسه دائمًا، ومن خلال ثبات ما يُحيط بها من شواطئ غريبة، ووجوه غريبة، ومن اتِّساع الحياة المُتغيِّر، ينزلق الماضي المُغلَّف ليس بحسٍّ غامض، بل بجهلٍ غير مُشرِّف. فليس هناك ما هو غامض بالنِّسبة لبحَّار إلا البحر نفسه، فهو سيِّد وجوده، وفيه غموض القدر، وللرَّاحة بعد ساعات العمل يكفيه أيُّ مشوار، أو أيُّ وقت للمَرَح على الشَّاطئ لفكِّ سِرِّ قارَّة بأسرها، وغالبًا ما يتكشَّف أن هذا السِّرَّ لا يستحقُّ المعرفة. تتميَّز حكايات رجال البحر ببساطة مُباشرة؛ إذ يكمُن كل معناها داخل قشرة جوز مُشقَّقة، لكنَّ «مارلو» لم يكُن نموذجيًّا -إذا توقَّعنا منه قُدرةً

على رواية الحكايات- ولم يكُن معنى حكاياته في الدَّاخل مثل البذرة، بل خارجًا، فهو يُغلِّف الحكاية التي تُظهره كما يظهر الوهج غلالة الضَّباب فيما يُشبه إحدى تلك الهالات الضَّبابيَّة التي يُبديها ضوء القمر الشَّبحيُّ.

لم تبدُ إشارته مُفاجئةً أبدًا، فقد كانت مثل «مارلو» نفسه. لقد قبلت بصمت ولم يُكلِّف أحدنا نفسه عناء زفرة. وهنا قال ببُطءٍ:

«خطرت ببالي تلك الأزمنة عندما جاء الرُّومان إلى هنا للمَرَّة الأوَّلى قبل ألفٍ وتسعمائة سنة -كأن هذا كان منذ أيَّام- جاء هذا النُّور من هذا النَّهر.. أقُلْتَ الفرسان؟ نعم. لكنه كان مثل النَّار تسري في السَّهل، مثل ومضة برق في الغيوم. إننا نعيش في خفقة النُّور التي أرجو بقاءها طالما استمرَّت أرضنا القديمة بالدَّوران، لكنَّ الظَّلام كان هنا بالأمس. تصوَّروا إحساس رُبَّان السَّفينة، ماذا تدعونها؟

«ترايريم»([1]) في البحر الأبيض المُتوسِّط، وقد أمر بالتَّوجُّه فجأةً صوب الشَّمال،

فيعبر أرض الغال([2]) بسُرعةٍ، ويُكلَّف بقيادة إحدى هذه السُّفُن التي كان يبنيها أفراد الفيلق، ولا بُدَّ أنَّهم كانوا مجموعة رائعة من الرِّجال المَهَرَة، بالمئات كما يبدو خلال شهر أو شهرين إذا آمنَّا بما نقرأ، تصوَّروه هنا في آخر العالم في بحر بلون الرَّصاص وسماء بلون الدُّخان ونوع من السُّفُن في صلابة الكونسرتينا([3]) صاعدًا إلى أعلى هذا النَّهر مُحمَّلًا بالزُّوَّادات والطَّلبات وأشياءَ أُخرى. ضفاف رمليَّة ومُستنقعات وغابات ومُتوحِّشون، حيث النَّادر الثَّمين ممَّا يصلح طعامًا لإنسان مُتحضِّر، وليس إلا ماء التِّيمز للشُّرب. لا نبيذ

من «فاليرن»([4]) ولا لجوء إلى الشَّاطئ. هنا وهناك يضيع معسكر للجنود في البرِّيَّة مثل إبرة في حزمة من القشِّ. بردٌ، وضبابٌ، وعواصفُ، وأمراضٌ، ومنفى، وموتٌ. موتٌ كامنٌ في الهواء والماء والحشائش. لا بُدَّ أنهم كانوا يموتون كالذُّباب هنا. نعم، لقد فعلها، فعلها جيِّدًا بلا شَكٍّ، ودون أن يُفكِّر بذلك كثيرًا إلا فيما بعد، وربما كان ذلك في معرض التَّباهي بما فعله في زمانه. كان لديهم من الرُّجولة ما يُواجهون به الظَّلام، وربما أسعده انتظار فُرصة للتَّرقية بالانتقال إلى الأسطول في «رافينا» فيما بعد، إن كان له أصدقاء في روما ليُخلِّصوه من المناخ الرَّهيب، أو تخيَّلوا شابًّا مُهذَّبًا بردائه الرُّومانيِّ «التوجا» ربما قامر بالمجيء إلى هنا ضمن مجموعة من المسؤولين، أو جامعي الضَّرائب، أو مع التُّجَّار من أجل تحسين أوضاعه فيحلَّ في الأرض الطِّينيَّة، ويجتاز الغابات، وفي موقع ما في الدَّاخل يشعر بالوحشيَّة المُجَرَّدة تُحاصره، بكل الحياة الوحشيَّة التي تتحرَّك في أحشاء الغابة، وفي الأدغال، وفي قلوب الرِّجال المُتوحِّشين، وليست لديه أقل معرفة بهذه الأسرار، فيكون عليه أن يعيش وسط ما لا يُدرك، وهو أمر مقيت، ولكن له سحره الخاصُّ الذي يبدأ بالعمل في كيانه. إنه سحر الكراهية والرُّعب. تصوَّروا النَّدَم الآخذ بالازدياد والتَّوق إلى الهرب والقرف غير المُجدي والاستسلام والحقد... وتوقَّف.

«ولكن...»، بدأ مرَّةً أُخرى وهو يرفع إحدى ذراعيه من المفصل، بينما راحة يده باتِّجاه الخارج، فاتَّخذ بساقيه المثنيَّتين أمامه وضع بوذا يُلقي موعظة بملابس أوروبيَّة بلا زهرة لوتس.

«لكنَّ أحدًا مِنَّا لم يشعر بمثل هذا تمامًا. إن ما ينقذنا هو الكفاءة، أن نكون مُكرِّسين لكفاءة، ولكنَّ هؤلاء الرِّجال لم تكُن لهم أهَمِّيَّة كبيرة. لم يكونوا مُستعمرين، فلم تكُن إدارتهم أكثر من اعتصار كما أعتقد. كانوا غُزاةً؛ لذا لم يكونوا يحتاجون إلا قُوَّة وحشيَّة، وأنت إذا حصلت على هذه القُوَّة فليس لك بعد ما تفخر به، فليست قُوَّتك إلا نتيجة عرضيَّة لضعف الآخرين. لقد امتلكوا ما استطاعوا من أجل ما كان عليهم أن يمتلكوا. كان سطوًا بالقُوَّة، جريمةً من الدَّرَجة الكُبرى سار الرِّجال إليها مُغمضين كشأن من يعملون في الظَّلام. غزو الأرض ليس بهذا الجمال عندما تُمعن فيه النَّظر، إنه يعني سلبها ممَّن تختلف بشرتهم عن بشرتنا، ممَّن لهم أنوف أكثر تسطُّحًا من أُنوفنا، ولا تفديه سوى الفكرة فقط. لا ادِّعاء عاطفيًّا، بل فكرة، ثم إيمان غير أنانيٍّ بالفكرة، شيء يمكنك أن تُشيِّده وتنحني أمامه وتُقدِّم له أُضحيةً...».

توقَّف عن الكلام، وانساب اللَّهَب في النَّهر، لهب صغير أخضر، لهب أحمر وأبيض يتتابع ويتشابك ويتجمَّع ويتقاطع مع بعضه بعضًا، ثم يتفرَّق ببُطءٍ، أو بسُرعة، واستمرَّت حركة المدينة العظيمة في اللَّيل الزَّاحف فوق النَّهر السَّاهر أبدًا. ترقَّبنا بصبر فلم يكُن هناك شيء آخرُ نفعله حتى انتهاء المَدِّ، ولكنه –وبعد سُكون طويل- قال بصوتٍ مُتردِّدٍ: «أعتقد أنكم تذكرون أيُّها الرِّفاق أنني عملتُ بحَّارًا في المياه العذبة فترةً قصيرةً»، فعرفنا أننا سنستمع إلى إحدى تجارب «مارلو» قبل بداية الجَزْر.

«لا أُريد أن أزعجكم بالكلام عمَّا جرى لي شخصيًّا»، بدأ يقول وهو يُظهر ضعف بعضِ رُواة القصص ممَّن يبدون أنهم لا يعرفون ما يُريد مستمعوهم

الإصغاء إليه.

«ولكن لكي تتفهَّموا أثر ذلك عليَّ فعليكم أن تعرفوا كيف وصلتُ إلى هناك، وما رأيت، وكيف صعدتُ إلى أعلى ذلك النَّهر، حيث قابلت هذا المسكين للمَرَّة الأُولى. كانت هذه أبعد نُقطة يمكن فيها الملاحة، وكانت نقطة الذُّروة في تجربتي، ويبدو أنها ألقت شيئًا من الضَّوء على جانب مِنِّي ومن أفكاري. كانت كئيبةً بما فيه الكفاية، كانت مُحزنةً، لم تكُن غير عاديَّةٍ في شكل من الأشكال، بل لم تكُن واضحةً تمامًا، كلَّا، غير واضحة تمامًا، ومع هذا فيبدو أنها ألقت شيئًا من الضَّوء.

كُنتُ في هذا الوقت قد عُدتُ للتَّوِّ من لندن كما تذكرون، وذلك بعد أن اكتفيتُ من الإبحار في المُحيط الهندي والأطلسي والبحار الصِّينيَّة التي كانت جرعات شرقيَّة مُنتظمة استمرَّت قرابة ستِّ سنواتٍ، كُنتُ خلالها رحَّالًا أشغلكم عن أعمالكم أيُّها الرِّفاق، وأغزو بيوتكم كما لو أن السَّماء أرسلتني لتمدينكم. كان ذلك رائعًا لبعض الوقت، ولكنني تعبتُ من الرَّاحة بعد فترة قصيرة، فبدأتُ أبحث عن سفينة، وهو ما أعتقد أنه العمل الأكثر قسوةً على وجه الأرض، ولكنَّ السُّفُن لم تهتم بي فبدأتُ أَضيق بهذه اللَّعبة أيضًا.

حينما كُنتُ صغيرًا أحببتُ الخرائط، وكُنتُ أنظر ساعاتٍ إلى أمريكا الجنوبيَّة وإفريقيا وأستراليا فأضيع في أمجاد الاستكشاف. كانت هناك فراغات كثيرة على الأرض في ذلك الوقت، فإذا ما بدا لي أن إحداها تدعوني لزيارتها (وقد كانت كلها كذلك) أشرتُ إليها بإصبعي وقُلتُ عندما أكبر سأذهب إلى هناك. كان القُطب الشَّمالي أحد هذه الأماكن على ما أذكر، لكنني لم

أذهب إلى هناك حتى الآن، ولن أُحاول ذلك فيما بعد. لقد فَقَدَ سحره. كانت بعض هذه الأماكن مُبعثرةً حول خطِّ الاستواء، وفي بُقع مُختلفة أُخرى شماله، أو جنوبه، ولقد ذهبت إلى بعضها و... حسنًا لن نتكلَّم عن ذلك، لكنَّ هناك مكانًا، وكان الأكبر والأكثر فراغًا أحببته.

حقًّا إنه لم يكُن بُقعة فارغة في ذلك الوقت؛ إذ كان قد امتلأ منذ طفولتي بالأنهار والبُحيرات والأسماء. كان قد توقَّف عن أن يكون بُقعة فارغة من غموض مُبهج، ورُقعة بيضاء لطفل تُراوده حولها أحلام مجيدة. لقد تحوَّلت إلى مكان للظَّلام، ولكن كان فيها نهر بشكل خاص؛ نهر جبار ترونه على الخريطة مثل أفعى امتدَّت حتى وصل رأسها البحر، بينما ارتاح جسدها مُتثنِّيًا فوق بلد شاسع، وضاع ذيلها في عُمق الأرض. عندما نظرت إليه على الخريطة في واجهة أحد المحلَّات سحرني كما تسحر الأفعى طائرًا صغيرًا أحمقَ. ثم تذكَّرت أنه كان هناك مشروع كبير؛ شركة للتِّجارة على ذلك النَّهر. دعك من كل هذا! قُلت لنفسي إذ لا يمكنهم التِّجارة دون استعمال زوارق على كل تلك المياه، زوارق بُخاريَّة، فلِمَ لا أُحاول أن أتولَّى قيادة واحدة منها؟ وتابعت سيري في شارع «فليت» لكنني لم أستطع أن أنبذ الفكرة. كانت الأفعى قد سحرتني.

تعرفون أن ذلك كان مشروعًا قارِّيًّا، تلك الشَّركة التِّجاريَّة، لكنَّ لي أقارب كثيرين يعيشون في القارَّة([5]) لأنها رخيصة، ولأنها أقلُّ قُبحًا ممَّا تبدو كما يقولون.

إنه لمن الأسف أن أعترف بأنني بدأتُ أُزعجهم، وكان ذلك تحوُّلًا جديدًا؛ إذ لم يكُن من عادتي أخذ الأمور بهذه الطَّريقة كما تعلمون، فقد مشيتُ دائمًا في طريقي الخاصِّ إلى حيث تقودني رغباتي، ولم أكُن أُصدِّق ذلك عن نفسي. ولكن عندها خالجني إحساس بأنني يجب أن أصل إلى هناك بطريقة أو بأُخرى، وهكذا أزعجتهم. قال لي الرِّجال «يا صديقنا العزيز»، ولم يفعلوا شيئًا، فحاولتُ -أترى تُصدِّقون هذا؟- حاولتُ مع النِّساء. أنا «تشارلي مارلو» طلبت من النِّساء أن يُساعدنني في الحصول على عمل. حسنًا، لقد قادتني الفكرة كما ترون. كانت لي خالة عزيزة عليَّ ذات روح مُتشوِّقة. كتبت لي «سيكون ذلك مُبهجًا، إنني على استعداد لأن أفعل أيَّ شيء، أيَّ شيء من أجلك، إنها لفكرة رائعة، وأنا أعرف زوجة إحدى الشَّخصيَّات المهمَّة في الإدارة، وأعرف كذلك رجلًا ذا نفوذ كبير في....»، إلخ.... إلخ.

كانت مُصرَّةً على إنهاء الأمر والمُساعدة في تعييني رُبَّانًا على أحد الزَّوارق البُخاريَّة النَّهريَّة إذا كان ذلك ما أرغب فيه.

عُيِّنت بالطَّبع. وجرى ذلك بسُرعة كبيرة، ويبدو أن الشَّركة قد تلقَّت أنباءً عن مقتل أحد ربابنتها في معركة مع الأهالي، فكانت فُرصتي، وهذا ما جعلني أكثر رغبةً في الذَّهاب، ومرَّت شهور وشهور قبل أن أبدأ في مُحاولة استعادة ما تبقَّى من الجُثَّة، فقد سمعت أن المعركة نشبت بسبب سوء تفاهم حول بعض الدَّجاج. نعم، دجاجتان سوداوان؛ إذ ظنَّ «فريسليفن» -كان اسم ذلك الشَّخص- وهو دنماركي أنه قد ظُلم في الصَّفقة، فنزل إلى الشَّاطئ، وبدأ يضرب زعيم القرية بعصا. إن سماع ذلك لا يُدهشني كما لم يُدهشني أن

أسمع أن «فريسليفن» كان ألطف وأهدأ مخلوق على وجه الأرض. لا شكَّ أنه كان كذلك، ولكنه كان قبل عامين من ذلك قد ارتبط بالهدف النَّبيل هناك. وربما أحسَّ أخيرًا بالحاجة إلى تأكيد احترامه لنفسه بطريقة ما، فضرب الزِّنجي العجوز بلا رحمة بينما كان جمع كبير من مُواطنيه يُشاهدونه مصعوقين، إلى أن تقدَّم رجل -هو ابن الزَّعيم كما عرفتُ- وقد استثاره صراخ الرَّجُل، وأرسل حربته المُجرَّبة سهلةً بين عظام كتفي الرَّجُل الأبيض، واختفى الجميع من الغابة وهم يتوقَّعون حدوث شتَّى أنواع المصائب، في حين غادر زورق «فريسليفن» ذُعرًا بقيادة المهندس كما أعتقد. وبعدها يبدو أن أحدًا لم يكترث برُفات «فريسليفن» إلى أن حُلِّل مكانه. لم أترك الأمر على حاله، ولكن عندما جاءت الفُرصة أخيرًا لرؤية من سبقني كانت الحشائش التي نَـمَت بين ضلوعه من الطُّول بحيث أخفت عظامه، وكانت كلها في مكانها؛ إذ لم يمس أحد ذلك الرَّجُل القادم من «الما وراء» منذ سقط. كانت القرية قد هُجرت فوقفت الأكواخ الخربة السَّوداء آيلة للسُّقوط داخل أسيجتها المُتهاوية. من الأكيد أن كارثة حَلَّت بها، فقد اختفى السُّكَّان. رعب مجنون شتَّت الرِّجال والنِّساء والأطفال بين الآكام، فلم يعودوا أبدًا. ولم أعرف ماذا حدث للدَّجاج. أعتقد أن هدف التَّقدُّم قضى عليها، ومهما يكُن من أمر فمن خلال هذه القضية المجيدة حصلتُ على وظيفتي قبل أن تبدأ آمالي في الحصول عليها بكثير.

مثل المجنون أسرعتُ بإعداد نفسي، وقبل أن تمضي ثمانٍ وأربعون ساعة كُنتُ أعبر القناة لأعرض نفسي على مُستخدمي لتوقيع العقد، وخلال ساعات قليلة وصلتُ إلى المدينة التي تجعلني دائمًا أُفَكِّر في الأضرحة البيضاء.

استعلاء من دون شكٍّ. لم أجد صعوبة في العثور على مكاتب الشَّركة. كانت أكبر شيء في المدينة، وكانت تملأ كيان كل من قابلتهم، إنَّهم يُريدون بناء إمبراطوريَّة وراء البحار ليُصبح عندهم ما لا يُحصى من المال عن طريق التِّجارة.

شارعٌ ضيِّقٌ مهجورٌ غمرته ظلال داكنة، بيوت عالية، وعدد لا يُحصى من النَّوافذ بستائرها التي تتحكَّم بإدخال الضَّوء. صمت القبور، وعُشب نبت بين الحجارة فارضًا الطَّريق نحو البوَّابات القوسيَّة إلى اليمين أو اليسار، حيث يُفتح باب ضخم ذو ضلفتين على مصراعيه. دخلتُ عبر إحدى هذه الفتحات، وصعدتُ درجات نظيفة خالية من الزَّخارف، قاحلة مثل صحراء، وفتحت أوَّل باب رأيته. كانت هناك امرأتان إحداهما بدينة، والأُخرى نحيفة، تنسجان صوفًا أسودَ، وقد جلستا على كُرسيين صُنعت قاعدتهما من القشِّ. نهضت النَّحيفة وتقدمت إليَّ -وكانت لا تزال تنسج بعينين حزينتين- وفي اللَّحظة التي فكَّرت فيها بالابتعاد عن طريقها كما يفعل النَّاس مع السَّائرين وهم نيام، توقَّفت ونظرت لي. كانت ملابسها في بساطة غطاء مظلَّة. استدارت دون أن تتفوَّه بكلمة، وسبقتني إلى حُجرة الانتظار. أخبرتها باسمي، وبدأت أُمعن النَّظر. كانت طاولة مصنوعة من خشب الصنوبر الأبيض تحتلُّ منتصف الحجرة، وقد اصطفَّت الكراسي البسيطة إلى الجدران، وفي أحد الأركان التمعت خريطة تحمل علامات بجميع ألوان الطَّيف. كان الأحمر أكثرها، من الجيِّد رؤيته لأنه يدلُّ على أن عملًا ما قد أُنجز، وبُقعتان فيهما كثير من الأزرق، وقليل من الأخضر، ورشقات بُرتقاليَّة. وعلى السَّاحل الشَّرقيِّ أشارت رُقعة قُرمزيَّة إلى المكان الذي يشرب فيه رُوَّاد التَّقدُّم العظام بيرة «لاجر» الرَّائعة. لم أكُن

سأذهب إلى أيٍّ منها على أيِّ حالٍ. كُنتُ ذاهبًا إلى الأصفر الذي كان كالموت في الوسط، وكان النَّهر هناك ساحرًا، مُميتًا، مثل أفعى. فُتح الباب وأطلَّ رأس سكرتيرة أشيب ارتسمت على وجهها تعبيرات الشَّفقة، وأشارت لي بأصبع نحيلة كي أذهب إلى المكان الحرام. كان الضَّوء خافتًا، وقد استقرَّ مقعد الكتابة بثقل في الوسط، وخلف هذا التَّكوين بدا ظلٌّ لجسد مُكتنز في معطف طويل. الرَّجُل العظيم بنفسه بطول خمس أقدام وستِّ بوصات كما قدَّرتُ، ويداه تملكان الملايين. صافحني وتمتم بغموض كما أذكر، مُعبِّرًا عن رضاه عن لُغتي الفرنسيَّة و«رحلة سعيدة».

خلال خمس وأربعين ثانيةً كُنتُ في حُجرة الانتظار مرَّةً أُخرى مع السِّكرتيرة المُشفقة التي لم تتخلَّ عن عطفها وحُزنها وهي تفرد العقد أمامي لتوقيعه، وأعتقد أنني تعهَّدت ضمن ما تعهَّدت ألا أُفضى بأيٍّ من أسرار المهنة. حسنًا، لن أفعل ذلك.

بدأ شعور بعدم الارتياح يُراودني؛ إذ إنني لم أتعوَّد على مثل هذه الطُّقوس، كما كان هناك في الجوِّ ما يُنذر بالشُّؤم. وبدا كما لو أنني أشترك في مُؤامرة -لا أدري- هناك شيء على غير ما يُرام. وأحسستُ بالابتهاج لخروجي. وفي الحجرة الخارجيَّة كانت المرأتان تنسجان الصُّوف الأسود بحماس. كان النَّاس يتوافدون، وأصغر المرأتين تذهب وتجيء وهي تقوم بتعريفهم، بينما جلست الكبيرة على كُرسيِّها وقد وضعت خُفَّيها القماشيين على مدفأة القدمين، واستراح قطُّها في حضنها. كانت تضع على رأسها غطاءً مُنَشَّى، وقد نبت لها دُمَّلٌ على أحد خدَّيها، وتعلَّقت نظَّارتها ذات الإطار الفضِّي بطرف أنفها،

نظرت لي من فوق نظَّارتها فأزعجتني نظراتها السَّريعة، وهدوؤها اللا مُبالي. وألقت بالنَّظرة السَّريعة نفسها من الحكمة اللا مُبالية على شابَّين لهما ملامح حمقاء كانا قد وصلا. وبدت كما لو أنها تعرف كُلَّ شيءٍ عنهما، وعنِّي أيضًا. خالجني إحساس غامض، فقد كانت تُنذر بالشُّؤم والغرابة، وكثيرًا ما فكَّرت -وأنا على تلك المسافة البعيدة- بالمرأتين، كانتا تحرسان باب الظَّلام، وتنسجان الصُّوف الأسود كما لو أنهما أرادتا أن تصنعا غطاءً دافئًا لنعشَيْهِما. الأولى تُقدِّم باستمرار إلى المجهول، وتُدقِّق الأُخرى في الوجوه الخرقاء بعينين هرمتين لا مُباليتين. السَّلام عليك يا ناسجة الصُّوف الأسود العجوز «الميِّتون يُحيُّونَكِ»، قليلون من أولئك الذين نظرت إليهم شاهدوها مرَّةً أُخرى، لم يبلغوا النِّصف على الأكثر.

كان لا يزال عليَّ أن أزور الطَّبيب «اجراء رسمي بسيط»، قالت لي السِّكرتيرة مُؤكِّدةً وكأنها تلعب دورًا كبيرًا في آلامي. ودخل شاب أمال قُبَّعته فوق حاجبه الأيسر قادمًا من مكان ما في الطَّابق العُلويِّ، مُوَظَّف كما أظنُّ، لا بُدَّ أنه كان هناك مُوَظَّفون على الرغم من أن البيت بدا هادئًا مثل بيت في مدينة الأموات، وقادني إلى الأمام. كان مُهلهل الثِّياب، عديم الاكتراث، وقد انتثرت بُقع الحبر على أكمام معطفه، واستقرَّت رابطة عُنقه العريضة المُتموِّجة تحت ذقن أشبه بمُقدِّمة حذاء قديم، كان الوقت لا يزال مُبكِّرًا على حضور الطَّبيب، فطلبتُ شرابًا، وهو ما أثار فيه السُّرور، وعندما جلسنا لتناول نبيذ «فيرموت» بدأ في مدح عمل الشَّركة، فعبَّرتُ له بعفويَّة عن دهشتي لعدم ذهابه إلى هناك. بدا أكثر برودًا، ثم تماسك بسُرعةٍ: «قال أفلاطون

لتلاميذه، لستُ بالأحمق الذي أبدو عليه»، قال بوقار، وأفرغ كأسه في جوفه بحزمٍ، ونهضنا.

جسَّ الطَّبيب العجوز نبضي بينما كان من الواضح أنه يُفكِّر في شيء آخرَ.. «جيِّد، مُناسب لهناك»، تمتم قائلًا، ثم سألني بنوع من الشَّغف عمَّا إذا كُنتُ أسمح له بقياس رأسي، وأجبتُ بدهشة بنعم. أحضر شيئًا يُشبه «الكاليبز»([6]) وبدأ يأخذ المقاييس من الخلف، ومن الأمام، وفي كل اتِّجاه، وهو يُدوِّن المُلاحظات باهتمام. كان رجلًا ضئيل الجسد، غير حليق، يرتدي معطفًا مُهترئًا وخُفًّا، فظننتُ أنه مجنون غير مُؤذٍ، قال: «إنني أطلب الإذن دائمًا كمُهتمٍّ بالعلوم لقياس جماجم الذَّاهبين لي هناك».

«وكذلك عندما يرجعون؟»، سألته، فقال: «في الواقع لا أراهم أبدًا. كما أن التَّغييرات تحدث في الدَّاخل كما تعلم»، وضحك كما لو أنه سمع نُكتة هادئة.. «إذن فأنت ذاهب إلى هناك، مُثير للاهتمام أيضًا»، وألقى عليَّ نظرة مُتفحِّصة، وقال مرَّةً أُخرى: «هل هناك حالات جنون في عائلتك؟»، سأل بلهجة من يُقرُّ حقيقةً. أحسستُ بالانزعاج الشَّديد، وقُلتُ: «وهل هذا السُّؤال من قبيل الاهتمام بالعلوم أيضًا؟»، أجاب دون أن يكترث بانزعاجي: «قد يكون من المُثير للعلم أن يُراقب التَّغيُّرات الذِّهنيَّة للأفراد فور حدوثها، ولكن....»... «وهل أنت طبيب نفسي؟» قُلت مُقاطعًا: «على كل طبيب أن يكون لديه قليل من المعرفة بذلك»، أجاب بهدوء راسخ: «عندي نظرية صغيرة عليكم أيُّها السَّادة الذَّاهبون إلى هناك أن تُساعدوني على إثباتها، وهذا هو نصيبي من الفوائد التي ستجنيها بلادي من امتلاك مثل هذه المُستعمرة. الثَّروة الوحيدة

التي أتركها للآخرين، معذرةً على أسئلتي، ولكنك أوَّل إنجليزي أفحصه..». أسرعتُ لتأكيد أنني لستُ نموذجيًّا على الإطلاق: «لو كُنت كذلك لما تحدَّثت معك بهذه الطَّريقة»، قُلتُ.. «إن ما تقوله عميق للغاية، وربما خطأ»، قال ضاحكًا: «تجنَّب أن تُستثار أكثر من التَّعرُّض للشَّمس، وداعًا. كيف تقولونها بالإنجليزية.. هه؟ وداعًا، وداعًا. في المناطق الاستوائيَّة يجب المُحافظة على الهدوء أكثر من أيِّ شيء آخر»، ورفع سبَّابته مُحذِّرًا: «الهدوء، الهدوء، وداعًا».

لم يتبق إلا شيء واحد أفعله، هو توديع خالتي الرَّائعة. وجدتُها في حالة انتصار، وشربتُ عندها بعض الشَّاي -كان ذلك آخر شاي أشربه لأيَّام عديدة– وفي غُرفتها التي بَدَت مُريحةً كما تتوقَّعون أن تكون عليه غُرفة استقبال سيِّدة.

ثرثرنا طويلًا بهدوءٍ قُرب المدفأة، وفي هذه المُصارحة اتَّضح أنني قُدِّمت لدى زوجة الشَّخصيَّة العظيمة، ويعلم الله لدى أيِّ عددٍ آخرَ من النَّاس أيضًا، باعتباري شخصًا استثنائيًّا وموهوبًا -ثروة كبيرة للشَّركة- شخص لا يمكن الحصول على مثله كل يوم. يا إلهى، وأنا الذي كُلِّفتُ بالعمل على زورق لا يُساوي بنسين ونصف البنس، وبصافرة لا تُساوي بنسًا واحدًا، ويبدو أنني كُنتُ أحد العُمَّال بالبُنط العريض. كُنتُ أشبه برسول من نور، أشبه بقدِّيس قليل المرتبة. ولقد كان هناك كثير من الهُراء الذي انتشر شفاهةً وكتابةً في ذلك الوقت، أمَّا المرأة الرَّائعة التي كانت تعيش في خِضَمِّ هذه الفورة من الهُراء فقد طارت فرحًا. تحدَّثت عن «وقف ملايين الجهلة بسبب أساليبهم الكريهة» حتى إنها حقًّا أزعجتني، فخاطرت بالتَّلميح بأن الشَّركة تسير نحو الرِّبح...

«إنك تنسى أيُّها العزيز تشارلي أن العامل يستحقُّ أجره»، قالت بذكاء. عجيب كم أن النِّساء بعيدات عن مُلامسة الحقيقة. إنهن يعشن في عالم خاص بهن لم يكُن له مثيل على الإطلاق، ولن يكون أبدًا. إنه فائق الجمال، فإذا ما حاولن إقامته تحطَّم قبل أن تغرب عليه الشَّمس، تلك حقيقة كريهة ما زلنا نحن الرِّجال نعيش فيها باقتناع منذ بدء الخليقة. تبزغ فجأةً، فتُطيح بكل شيء.

عانقتني خالتي بعد ذلك، ونصحتني بأن أرتدي الصُّوف، وطلبت مِنِّي أن أكتب بين حينٍ وآخرَ، وغير ذلك، وخرجتُ في الشَّارع -ولا أدري لماذا- خالجني إحساس غريب بأنني مُحتال. غريب، فأنا الذي تعوَّدتُ الذِّهاب إلى أيِّ جزء من العالم في أقل من أربع وعشرين ساعة من إبلاغي، وبتفكير أقل ممَّا يبذله مُعظم النَّاس عندما يعبرون الشَّارع، غريب أن تنتابني لحظة -لن أقول من التَّردُّد- بل وقفة ذُعر أمام هذا الحدث العادي، وإن أفضل طريقة لشرح ذلك لكم هو القول بأنني أحسستُ للحظة أو اثنتين بأنني لستُ ذاهبًا إلى مركز قارَّة، بل إلى مركز الأرض.

غادرتُ في سفينة فرنسيَّة توقَّفت في كل ميناء يملكونه هناك، ولسبب لم أجد غيره هو إنزال الجنود ومُوَظَّفي الجمارك. راقبتُ الشَّاطئ. إن مُراقبة شاطئ تنساب قُربه سفينة أشبه بالتَّفكير في لُغز. ها هو أمامك مُبتسم، عابس، داعٍ، عظيم، حقير، باهت، أو وحشي، ودائمًا أبكم تلوح عليه علامات الرَّغبة في الهمس... «تعالَ واكتشف....». أمَّا هذا البحر فكان بلا ملامح، كما لو أنه في طور التَّكوين بهيئته الرَّتيبة المُتجهِّمة. كان طرف غابة هائلة كادت

خُضرتها القاتمة تتحوَّل إلى سواد، يلتقي بالموج الأبيض الذي جرى مُستقيمًا مثل خطٍّ مُسطَّر، بعيدًا، بعيدًا على طول بحر أزرقَ غطَّى لمعانَهُ ضبابٌ زاحفٌ. كانت الشَّمس وحشيَّة، والأرض تتلألأ وتنفث البُخار. وهنا وهناك بَدَت البُقع الرَّماديَّة البيضاء مثل العناقيد داخل الموج الأبيض، يُرفرف فوقها علم كما يظهر، مُستوطنات، زمن بعضها يبلغ قُرونًا، لكنَّ حجمها الذي لا يزيد على حجم رأس الدَّبُّوس لاح في مدى خلفيَّتها المُترامي. سرنا، ووقفنا، وأنزلنا الجنود، وتابعنا، وأنزلنا رجال الجمارك للجباية فيما بدا وكأنه خلاء مهجور. أُقيمت فوقه حظيرة من الصَّفيح ضاع فيها عمود العلم، وأنزلنا مزيدًا من الجنود لخدمة المُوَظَّفين في مبنى الجمارك على ما يبدو. سمعتُ أن الموج أغرق بعضهم، ولكن لا يبدو أن أحدًا يهتمُّ، فقد كُنَّا نتركهم هناك، ثم نُواصل السَّير. في كل يوم كان الشَّاطئ يبدو كما في اليوم السَّابق، وكأننا لم نتحرَّك، لكننا مررنا بأماكن مُختلفة -أماكن تجاريَّة- تحمل أسماءً مثل «جران بسام»، و«ليتل بوبو» وكأنها مأخوذة من كوميديا حقيرة مُثِّلت أمام ستارة شريرة، وبدا كسل المُسافر وإحساسي بالعُزلة بين كل أولئك الرِّجال الذين لا رابط بيني وبينهم، والبحر الزَّيتي الواهن، والكآبة المُتَّصلة للسَّاحل، وكأنها تُبقيني بعيدًا عن حقيقة الأشياء داخل شَرَكٍ من وهمِ الحِداد. كان صوت الموجة بين الحين والآخر فرحةً غامرةً، مثل حديث الأشقَّاء. كان شيئًا طبيعيًّا له منطقه ومعناه، وبين الحين والآخر كان أحد القوارب يأتي من الشَّاطئ بمُجدِّفيه السُّود ليُقيم لنا اتِّصالًا لحظيًّا بالحقيقة. ومن بعيد كان في وسعنا رؤية بريق أعيُنهم. كانوا يصرخون ويُغنُّون، وكانت أجسامهم تلتمع بالعرق المُتصبِّب، ووجوههم كالأقنعة المُرعبة، ولكن كانت لهم العظام والعضلات

وحيويَّة البرِّيَّة. طاقة حركة عظيمة تُشبه في طبيعتها وحقيقتها موجة ساحليَّة. لم يكونوا في حاجة إلى مُبرِّر لوجودهم هناك. كانت رؤيتهم مصدر راحة عظيمة. كُنتُ أشعر لبعض الوقت بأنني لا أزال أنتمي إلى عالم من الحقائق المُباشرة، إلا أن ذلك الشُّعور لم يكُن يستمرُّ طويلًا بعد أن يطغى عليه شيء آخرُ. أذكر مرَّةً أننا مررنا بسفينة حربيَّة كانت تقف بعيدًا عن الشَّاطئ الذي خلا حتى من حظيرة، وتقصف الآجام. يبدو أن الفرنسيين كانوا يخوضون إحدى حروبهم في تلك الأنحاء. تدلَّت راية السَّفينة مُمزَّقةً مثل خرقة بالية، بينما كانت فُوَّهات المدافع الطَّويلة التي يبلغ قُطرها ستَّ بوصات مُثبَّتة على جوانب جسم السَّفينة المُنخفض، وقد ارتفع بها الموج الدُّهني اللَّزج إلى أعلى بكسلٍ، ثم تركها تهوى وتُؤرجح قُلوعها. وفي فراغ الأرض والبحر والماء الهائل كانت تُطلق النَّار على القارَّة بشكل مُبهم... ب... و.... م...، وينطلق أحد المدافع ذات البوصات السِّتِّ فيلتمع لهب صغير، ثم يختفي، ويختفي بعده الدُّخان الأبيض، أمَّا القذيفة الصَّغيرة فكانت تُصدر صرخة ضعيفة دون أن تتمكَّن من فعل شيء. كانت لمسةٌ من جنون تصبغ ذلك الحدث وحسٌّ بهزليَّة حزينة في قلب المشهد، ولم يُبدِّد ذلك تأكيد أحد المُسافرين لي بحماسة أنه كان هناك مُخيَّمٌ للوطنيين -كان يُسمِّيهم الأعداء- المُختبئين في مكان.

أعطيناها رسائلها، وتابعنا السَّير، وسمعتُ أن الرِّجال الذين على ظهر تلك السَّفينة الوحيدة كانوا يقعون صرعى الحُمَّى بمُعدَّل ثلاثة كل يوم، وتابعنا ومررنا على مزيدٍ من الأماكن ذات الأسماء المُضحكة، حيث كانت رقصة الموت والتِّجارة المرحة تمضي في جوٍّ أرضيٍّ ساكن، مثل جوِّ قبر شديد الحرارة، على طول الشَّاطئ الذي لا شكل له، والذي كانت تحدُّه الأمواج

الخطرة، كما لو كانت الطَّبيعة قد حاولت تفادي المُتطفِّلين. وفي داخل الأنهار وخارجها غزت جداول الموت في الحياة التي كانت ضفافها تتعفَّن مُتحوِّلةً إلى طينٍ، ومياهها تتكثَّف مُتحوِّلةً إلى وحلٍ، وأشجار المانجاروف المُلتوية التي بَدَت وكأنها تنثني نحونا بيأس عاجز مُطبق. لم نتوقَّف في أيِّ مكان لمدة تكفي لإعطاء انطباع مُميَّز، لكنَّ إحساسًا عامًّا بالغموض والحيرة الكئيبة اجتاحني. كان أشبه برحلة حجٍّ مُنهكة خلال نُذُر بالكوابيس.

كُنتُ أقترب من يومي الثَّلاثين وأنا صاعد قبل أن أرى مصبَّ النَّهر الكبير. رسونا بعيدًا عن مقرِّ الحكومة، لكنَّ عملي لم يكُن ليبدأ قبل مسير قرابة مئتي ميل من هناك. لذا فقد بدأتُ الصُّعود إلى مسافة ثلاثين ميلًا بأسرع ما أمكنني.

كانت رحلتي فوق سفينة بحريَّة يقودها قُبطان سُويدي دعاني إلى المنصَّة عندما عرف أنني بحَّار. كان شابًّا نحيلًا وسيمًا، عكرَ المزاج، طويل الشَّعر، ثقيل الخطوات. وعندما غادرنا الرَّصيف الصَّغير التَّعِس لوَّح برأسه إلى الشَّاطئ باحتقار، وسأل: «هل كُنت تعيش هناك؟».

قُلتُ: «نعم»، فمضى قائلًا: «رائعون، رجال الحكومة هؤلاء، أليس كذلك؟»، قالها بلُغة إنجليزيَّة سليمة، وبمرارة ملحوظة... «مُضحك ما يفعله بعض النَّاس في مُقابل فرنكات قليلة في الشَّهر، وإنني أتساءل عمَّا يحدث لهم عندما يصلون للبلاد؟». قُلت له إنني أتوقَّع أن أعرف ذلك سريعًا... «هكـ... ذا»، قال مُتعجِّبًا، وخطا مُتثاقلًا بالعرض مُحتفظًا بنظرة حذرة إلى الأمام... «لا تكُن مُتأكِّدًا من ذلك»، تابع قائلًا: «فمنذ أيَّام أخذتُ رجلًا معي

فشنق نفسه في الطَّريق. كان سُويديًّا هو أيضًا»... «شنق نفسه، لماذا بحقِّ الرَّبِّ؟»، صرختُ، لكنه مضى ينظر بترقُّب: «لا أحد يعرف، ربما كانت حرارة الشَّمس عاليةً، وربما البلد».

شققنا طريقنا أخيرًا إلى النَّهر، وظهر جرف صخري وأكوام من تُراب الحفر قُرب الشَّاطئ، وبيوت فوق تلٍّ، وأُخرى ذات أسطح حديديَّة وسط بواقي الحفريات، أو مُعلَّقة فوق المُنحدر. وطغى صوت ضجيج مُتَّصل صادر عن المياه المُنحدرة على مشهد الخراب المأهول هذا. وتحرَّك هنا وهناك بعض النَّاس مُعظمهم سُودٌ عُراةٌ مثل النَّمل. وبرز نتوء في عرض النَّهر. كان ضوء الشَّمس الباهر يغمر كل ذلك بين الحين والآخر بوهج مُتجدِّد. قال السُّويدي: «هذه هي محطَّة شركتك»، وأشار إلى ثلاثة هياكل تُشبه الثَّكنات فوق المُنحنى الصَّخري... «وسأُرسل أمتعتك هناك إلى الأعلى. قُلتَ أربعة صناديق؟ وداعًا».

مررتُ بمرجل بين الأعشاب، ثم رأيتُ ممرًّا يقود إلى أعلى التَّلِّ، وقد استدار حول الصُّخور، حيث استقرَّت عربة سكَّة حديد ضئيلة الحجم على ظهرها، وقد ارتفعت عجلاتها التي نقصت واحدةً في الفضاء، فبدت كهيكل حيوان نافق. مررتُ على مزيد من القطع الآليَّة الخربة، وكومة من السِّكك الصَّدئة، وإلى اليسار ألقت أجمة من الأشجار بظلالها على أشياءَ داكنة كانت تتحرَّك بوهن. نظرتُ بعينين نصف مُغمضتين، فرأيتُ الممرَّ شديد الانحدار، وسمعتُ صوت بوق إلى اليمين، ثم رأيتُ بعض الرِّجال السُّود يركضون. وهزَّ الأرض انفجار قوي غامض، وارتفعت سحابة دخان من الجرف، وسكن كل

شيء. بدا وكأن شيئًا لم يحدث للصَّخرة. كانوا يقومون ببناء سكَّة حديد. ولم يكُن الجرف يعترض الطَّريق، ولكن كان هذا التَّفجير الذي لا هدف له هو كل ما يجري من عمل.

أدرتُ رأسي لأتبيَّن صوت خشخشة خفيفة خلفي. كان ستَّة رجال سُود يتقدَّمون في رتل، وقد أنهكهم صعود الممرّ. انتصبت قاماتهم، وأبطأوا السَّير، وبدأوا يُوازنون السِّلال المملوءة بالتُّراب على رُؤوسهم، والخشخشة النَّاتجة عن خطواتهم مُستمرَّة. كانوا يلفُّون خرقًا سوداء حول وسطهم، وقد اهتزت أطرافها القصيرة خلفهم مثل الذُّيول. كُنتُ أستطيع رؤية كل ضلع من أضلاعهم ومفاصل أطرافهم التي كانت أشبه بعقد في حبل. كان للجميع ياقات حديديَّة على رقابهم، وكل منهم مربوط بالآخر بسلسلة كانت حلقاتها تتأرجح بينهم مُصدرةً خشخشةً رتيبةً. وذكَّرني انفجار آخر جاء من الجرف بالسَّفينة الحربيَّة التي شاهدتها تقصف اليابسة. كان ذلك الصَّوت المشؤوم نفسه، إلا أن كلمة أعداء لا تنطبق بأيِّ حال على هؤلاء الرِّجال مهما حلَّق بنا الخيال. كانوا يسمون مُجرمين، وقد جاءهم القانون المُتفجِّر كالقذائف سرًّا مُستعصيًا من البحر. كانت صدورهم الهزيلة تلهث في تناسُق. وقد ارتعشت أُنوفهم المُفلطحة، وحملقت الأعيُن الحجريَّة بقمَّة التَّلِّ. تجاوزوني بست بوصات دون أدنى التفاتة لي، تعلوهم سيماء اللا مُبالاة الكاملة لوحوش تعيسة. وخلف هذه المخلوقات البدائيَّة مشى أحد المُروِّضين، ناتج القُوَّة الجديدة في الميدان كئيبًا يحمل بُندقيَّة من وسطها. كان يرتدي معطفَ بذلة رسميَّة سقط أحد أزرارها، وعند رُؤيته رجلًا أبيضَ في الممرِّ رفع سلاحه إلى كتفه مُبتهجًا. كان ذلك نوعًا من الحكمة السَّاذجة، فالرِّجال البيض بالنِّسبة لهم

مُتشابهون عن بُعد بحيث لم يعرف من أكون، لكنه سرعان ما تأكَّد، وبتقطيبة وغدٍ أظهرت أسنانه البيضاء والتفاتة نحو الرِّجال المُكلَّف بهم، بدا وكأنه يُشركني في مهمَّته المجيدة، فلستُ إلا جزءًا من الهدف العظيم لتلك المهمَّات النَّبيلة العادلة.

بدلًا من الصُّعود إلى الأعلى استدرتُ ونزلتُ باتِّجاه اليسار لأترك المجال لجماعة المُقيَّدين تلك للذَّهاب بعيدًا عن نظري قبل أن أُكمل صعود التَّلِّ. لستُ رقيقًا بصورةٍ خاصَّةٍ كما تعرفون، فقد كان عليَّ أن أضرب وأصُدَّ الضَّربات، وكان عليَّ أن أُقاوم وأُهاجم في بعض الأحيان -وتلك أحد أساليب المُقاومة- من دون حساب الثَّمن الذي سأدفعه بدقَّةٍ، على حسب ما يتطلَّبه نوع الحياة التي كُنتُ أتخبَّط فيها. رأيتُ شياطين العُنف والجشع والرَّغبات المُلتهبة، ولكن بحقِّ كل النُّجوم! لقد كانوا شياطين أقوياء شرهين حُمر الأعيُن، سيطروا على الرِّجال وساقوهم، أقول لكم رجال. ولكن عندما وقفتُ على طرف التَّلِّ ذاك تنبَّأتُ أنني وفي نور الشَّمس المُبهر لتلك الأرض سأتعرَّف على شيطان مُدَّعٍ مُهترئ قصير النَّظر ذي حماقة جشعة نَهِمَة، وكان عليَّ أن أقضي شهورًا عديدة، وأن أقطع ألف ميل لأرى بنفسي مقدار خُبثه. وقفتُ لحظةً كمن أرعبه إنذار، وأخيرًا نزلتُ من التَّلِّ مُنحرفًا باتِّجاه الأشجار التي كُنتُ قد رأيتها.

تجنَّبتُ حفرة كان شخص قد حفرها عند المُنحنى لغير ما سبب يمكن التَّنبُّؤ به. لكنها لم تكُن مقلعًا أو حُفرة رمليَّة على أيِّ حال، ولكن ربما كانت لها علاقة بالرَّغبة المُحسنة في إعطاء المُجرمين عملًا ما. لستُ أدري بالضَّبط.

وبعد ذلك أوشكتُ على السُّقوط في وادٍ ضيِّقٍ صغيرٍ لا يعدو أن يكون أكثر من نُدبة في طرف التَّلِّ. وقد اكتشفتُ أن كثيرًا من أنابيب الصَّرف الخاصَّة بالمُستوطنة تصبُّ هناك. كانت كلها مُكسَّرة بفعل تخريب عبثي، وأخيرًا وصلتُ تحت الأشجار بهدف التَّمشِّي في الظِّلِّ لحظةً، لكنني سرعان ما بدوتُ وكأنني قد خطوتُ إلى دائرة العتمة في جحيم ما. كان مُنحدر المياه قريبًا، وقد امتلأ ضجيجًا مُنتظمًا بلا انقطاع هدوء الغابة الحزين، حيث لم تخرج زفرة، ولا تحرَّكت ورقة من شجرة مُحدثةً صوتًا غامضًا كما لو أن الخطو المُمزِّق للأرض المُندفعة قد أصبح فجأةً مسموعًا.

انحنت أشباح سوداء، واستلقت، وجلست بين الأشجار مُتَّكئةً على جذوعها مُتشبِّثةً بالأرض، نصفها طمسه الضَّوء المُعتم، والنِّصف الآخر خارجه بكل أوضاع الألم واليأس والخذلان. انفجر لغمٌ آخرُ من على الجرف، وتلاه ارتجاف خفيف في التُّربة تحت قدميَّ. كان العمل لا يزال مُستمرًّا. العمل! وكان هذا هو المكان الذي انسحب بعض المُساعدين إليه ليموتوا.

كان واضحًا أنهم يموتون ببُطءٍ. لم يكونوا أعداءً. لم يكونوا مُجرمين، ولم يكونوا أيَّ شيء أرضي الآن، لم يكونوا سوى ظلال سوداء للمرض والجوع مُبعثرة في الظَّلاميَّة المُخضرَّة. أُحضروا من أقصى بقاع السَّاحل بكل شرعيَّة اتِّفاقيَّات الزَّمَن، وضاعوا في المُحيط غير المُناسب، يتناولون الغداء غير المألوف فيُصيبهم المرض، فيصبحون غير أكفاء، فيُسمح لهم بعد ذلك بأن يزحفوا بعيدًا ويرتاحوا. كانت تلك الأشباح المُحتضِّرة حُرَّةً كالهواء، ونحيلةً مثله تقريبًا. بدأتُ أُميِّز لمعان الأعيُن تحت الأشجار، وبينما أنا ألتفتُ صوب

الأسفل شاهدتُ وجهًا قُرب يدي. كانت العظام السَّوداء مُستلقيةً بطولها، وقد اتَّكأت إحدى الكتفين إلى جذع شجرة. وببُطءٍ كبيرٍ ارتفعت الرُّموش، ونظرت العينان الغائرتان إليَّ، كبيرتان خاليتان كما لو أنهما لا تُبصران، وخفق شيء أبيض في عُمق مدارهما، ثم ما لبث أن تلاشى. بدا الرَّجُل شابًّا -أقرب إلى صبي- ولكن من الصَّعب تبيُّن ذلك بالنِّسبة لهم. لم أجد ما أفعله له إلا تقديم بعض البسكويت الجيِّد من سفينة السُّويدي بقيت في جيبي. اقتربت الأصابع منها، وأمسكت بها، لم يصدر أيَّ حركة أو التفاتة أُخرى. كان يلفُّ قطعة من النَّسيج الأبيض حول عُنقه، لماذا؟ ومن أين حصل عليها؟ هل كانت شارة، زينة، تعويذة، أم عمل استعطاف؟ هل كانت ترتبط بذلك أيُّ فكرة؟ كانت تبدو مُروِّعةً حول عُنقه الأسود، تلك القطعة من الخيط الأبيض من خلف البحار.

بالقُرب من الشَّجرة نفسها كانت حزمتان أُخريان من الرَّوايا الحادَّة تجلس مُقرفصةً. أسند أحدهما ذقنه على ركبتيه وحملق في الفراغ بطريقة مُروِّعة. أمَّا شبحه فقد أراح جبهته كمن غلبه تعب عظيم، وحولهما انتشر آخرون مُتَّخذين كل أوضاع الانهيار المُؤلم، كما في رسومات المذابح والأوبئة، وبينما أنا أقف وقد مسَّني الرُّعب، نهض أحد هذه المخلوقات على يديه ورُكبتيه ومشى على أربع نحو النَّهر ليشرب. لعق الماء من يده ثم جلس في ضوء الشَّمس مُتربِّعًا، وبعد قليل ترك رأسه يسقط فوق عظام صدره. لم أَعُد أرغب في مزيد من التَّأخُّر في الظِّلِّ، فمضيتُ مُسرعًا صوب المحطَّة. وعند البناية التقيتُ رجلًا أبيضَ بأناقة لم أتوقَّعها. أذهلتني رُؤيته بياقته العالية، وثنيات كُمَّيه الأبيضين ومعطفه الأبيض المصنوع من صوف الألباكا الخفيف،

والبنطلون الأبيض مثل الثَّلج ورابطة العُنُق الخالية من النُّقوش، والحذاء اللَّامع. لم يكُن يضع قُبَّعة على شعره المفروق المُمشَّط والمُضمَّخ بالزَّيت تحت مظلَّة شمسيَّة خضراء الحواف رفعتها يد بيضاء كبيرة. كان مُدهشًا يضع القلم خلف أُذنه.

صافحت تلك المعجزة، وعلمت أنه كان كبير مُحاسبي الشَّركة، وأن مسك الدَّفاتر يتم في هذه المحطَّة. أخبرني أنه قد خرج للتَّوِّ «ليستنشق الهواء النَّقيَّ» بدا التَّعبير شاذًّا بإيحائه بالأجواء المكتبيَّة. لم أكُن لأذكر لكم شيئًا عن هذا الشَّخص، لولا أن شفتيه كانتا أوَّل من نطقتا باسم الرَّجُل الذي يكون مع ذكرى ذلك الزَّمَن كُلًّا لا ينفصل. إلا أنني احترمتُ الرَّجُل. نعم، احترمت ياقته وثنيات كُمَّيه العريضة، وشعره المُمشَّط. كان أشبه ما يكون بدُمية حلَّاق، إلا أنه احتفظ بأناقته في بلاد الانحطاط الأعظم. كان ذلك هو الأساس، أمَّا ياقته العالية وأطراف قميصه الأماميَّة فإنجازات بارزة. كان هناك منذ ثلاث سنوات فيما بعد لم أستطع مُقاومة توجيه السُّؤال له حول كيفيَّة تدبيره اقتناء تلك الملابس. احمرَّ وجهه قليلًا، وأجاب بتواضع: «كُنتُ أقوم بتعليم إحدى النِّساء الوطنيَّات شؤون المحطَّة.. كان ذلك صعبًا، فقد كانت تُضمر كراهية للعمل»، وهكذا استطاع ذلك الرَّجُل إنجاز شيء، لقد كرَّس نفسه لدفاتر حساباته التي كانت مُنظَّمةً بصورةٍ رائعةٍ.

كان كُلُّ شيءٍ عدا ذلك مُشوَّشًا.. الرُّؤوس والأشياء والبنايات. كانت صفوف من الزُّنوج المُغبَرِّين بأقدامهم المُفلطحة تأتي وتذهب، وصفوف

أُخرى من البضائع المُصنَّعة والأقطان القذرة والقلائد والأسلاك النُّحاسيَّة تُرسل إلى أعماق الظَّلام، وفي المُقابل كان يأتي بعض العاج الثَّمين.

كان عليَّ أن أنتظر في المحطَّة عشرة أيَّام، أبديَّة كاملة. عشتُ في كوخ في ساحة المحطَّة، ولكنني حتى أبتعد عن الفوضى كُنتُ أذهب إلى مكتب المُحاسبة أحيانًا. كان مبنيًّا من ألواحٍ خشبيَّةٍ أُفقيَّةٍ، لكنها كانت مُركَّبةً بشكلٍ سيِّىء، حيث إنه كان كلما انحنى فوق مكتبه غطَّت كل جسمه خطوط دقيقة من ضوء الشَّمس أغنت عن فتح المصراع الكبير للنَّظر للخارج. كان الجوُّ هناك حارًّا أيضًا، والذُّباب الكبير يطنُّ بصورة شيطانيَّة. لم يكُن ذلك الذُّباب يلسع، بل كان يطعن. كُنتُ أجلس على الأرض في أغلب الأوقات، بينما كان هو بمظهره الكامل المُعطَّر قليلًا يكتب مُستقرًّا فوق كرسيٍّ مُرتفع. كان يكتب ويكتب. وفي بعض الأحيان كان يقف قليلًا للقيام ببعض التَّمارين. وعندما كان يُوضع سرير ذو عجلات ليرقد عليه رجل مريض (مُوَظَّف من أعلى البلد عادةً) كان يُظهر بعض الامتعاض قائلًا: «إن تأوُّهات هذا المريض تُشتِّت انتباهي، ولكن من دون ذلك فإن من الصُّعوبة أن تُحاذر من الأخطاء الكتابيَّة في هذا المناخ».

في أحد الأيَّام قال دون أن يرفع رأسه: «هناك في الدَّاخل لا بُدَّ أنك ستُقابل السَّيِّد كورتز»، وعند سُؤالي عمَّن يكون السَّيِّد كورتز هذا، قال: «مُوَظَّف من الطِّراز الأوَّل»، ولمَّا رأى خيبة أملي من هذه المعلومة أضاف ببُطءٍ وهو يضع قلمه: «إنه شخص غير عادي»، وبعد بضعة أسئلة تبيَّن لي أن السَّيِّد كورتز كان في ذلك الوقت مسؤولًا عن محطَّة تجاريَّة مهمَّة جدًّا في

بلد العاج الحقيقي... «هناك في الأسفل، حيث يُرسل من العاج بمقدار ما يُرسل الآخرون مُجتمعين»، ثم تابع الكتابة من جديد. كان المريض أضعف من أن يئنَّ. وطنَّ الذُّباب وسط هدوء عظيم.

فجأةً، تناهت همهمة أصوات وضجَّة وقع أقدام. لقد وصلت قافلة. انفجرت ثرثرة أصوات عنيفة في الجانب الآخر من الرَّصيف الخشبيِّ. كان جميع الحمَّالين يتحدَّثون في الوقت ذاته. وفي وسط هذه المعمعة ارتفع صوت كبير المُحاسبين مثل العويل للمَرَّة العشرين في ذلك اليوم... «لا أمل»، ثم نهض ببُطءٍ: «يا لها من معمعة مُخيفة»، قال، وعبر الغُرفة بهدوء لينظر إلى المريض، ثم حدَّثني وهو راجع: «كأنه لا يسمع»، وأجفلت: «ماذا... ميت؟»، أجاب برباطة جأش: «كلَّا، ليس بعد»، ثم أشار برأسه إلى الصَّوضاء في ساحة المحطَّة قائلًا: «عندما يكون على المرء أن يُسجِّل بدقَّة فإنه يكره هؤلاء المُتوحِّشين ويكرههم حتى الموت»، بقي شاخصًا لحظةً: «عندما ترى السَّيِّد كورتز»، تابع قائلًا: «أخبره نيابةً عنِّي أن كُلَّ شيءٍ هنا»، ونظر إلى الكرسيِّ.. «كُلُّ شيءٍ في حالة مُرضية، لا أحب أن أكتب لهم، فمع مُراسلين مثل الذين يعملون عندنا لن تعرف من سيفتح رسالتك في تلك المحطَّة المركزيَّة»، وحدَّق فيَّ لحظة بعينيه الرَّقيقتين الجاحظتين: «إنه سيذهب بعيدًا، بعيدًا جدًّا»، ثم بدأ مرَّةً أُخرى: «سيكون شخصيَّة مهمَّة في الإدارة عمَّا قريب، إنَّهم هناك -المجلس في أوروبا- تعرف يُريدونه أن يكون كذلك».

استدار مُتابعًا عمله. كانت الضَّجَّة في الخارج قد توقَّفت، وبينما أنا أخرج وقفتُ بالباب، كان الذُّباب يطنُّ بانتظام، والمُوَظَّف المُتَّجه نحو الوطن

مُستلقٍ أفقدته الحُمَّى صوابه، أمَّا الآخر فقد انحنى فوق أوراقه يُصحِّح مُعاملات الدُّخول المضبوطة جيِّدًا، وعلى بُعد خمسين قدمًا تحت عتبة الباب تمكَّنت من رؤية قمم الأشجار السَّاكنة في غابة الموت.

في اليوم التَّالي غادرتُ المحطَّة أخيرًا، مع قافلة من ستِّين رجلًا في رحلة على الأقدام لمسافة مئتي ميل.

لا فائدة من إبلاغكم كثيرًا عن ذلك، ممرَّات، ممرَّات في كل مكان، شبكة من الممرَّات شقَّتها الخُطى تُغطِّي الأرض الخالية عبر العُشب الطَّويل، عبر العُشب المحروق، وعبر الأجمات نزولًا وصعودًا، في المُنحدرات الباردة صعودًا ونزولًا في التِّلال الحجريَّة التي ألهبتها شدَّة الحرارة، وعُزلة، عُزلة. لا أحد، ولا كوخ. كان السُّكَّان قد رحلوا منذ زمن بعيد. حسنًا، إذا بدأت مجموعات الزُّنوج الغامضين المُزوَّدين بأنواع الأسلحة المُخيفة بالظُّهور فجأةً عبر الطَّريق من «ديل» إلى «جريفسيند»، تُطارد الفلَّاحين يمينًا ويسارًا لإجبارهم على نقل أحمالهم الثَّقيلة، أعتقد أن كل المزارع والأكواخ المُحيطة بتلك المنطقة ستخلو من أصحابها خلال فترة قليلة. هنا ذهبت أكواخ أيضًا، غير أنني مررتُ ببعض القُرى المهجورة. كان هناك شيء طفولي يُثير الحُزن في حُطام هذه الجدران العُشبيَّة. يومًا بعد يوم مضيتُ تتبعني خُطى ستِّين زوجًا من الأقدام العارية ينوء كل منها تحت ثقل ستين رطلًا. تخييم، وطبخ، ونوم، وتفكيك المُخيَّم، فمسيرٌ. وبين الحين والآخر نمرُّ بأحد الحمَّالين ميِّتًا، مرتاحًا بين الأعشاب الطَّويلة قُرب الممرِّ بقربة فارغة، وبعُكَّاز طويل إلى جانبه. هدوء عظيم حولنا وفوقنا، ربما تخفت ذات ليلة هادئة ارتعاشة طبول بعيدة

الغور، متصاعدة، ارتجافة عظيمة، مُتلاشية، صوت مشؤوم مُستغيث مُوحٍ ووحشي، وربما عميق المعنى، مثل صوت الأجراس في بلد مسيحي. مرَّةً رأيتُ رجلًا أبيضَ يرتدي بذلةً رسميَّةً غير مفكوكة الأزرار يُخيِّم قُرب الممرِّ مع مرافقيه المُسلَّحين الزِّنجباريين النَّحيفين. كان مضيافًا جذلًا حتى لا أقول ثملًا، يُعلن أن هدفه هو الحصول على أجر صيانة الطَّريق. لم أَرَ طريقًا أو صيانة، بل رأيتُ جسدَ زنجيٍّ كهلٍ اخترقت رصاصة جبهته. تعثَّرت قدماي على بُعد ثلاثة أميال، ربما أعتبر هذا تحسينًا دائمًا. كان لي رفيق أبيضُ أيضًا. لم يكُن سيئًا، لكنه كان مُكتنز الجسم. من عاداته المُزعجة أنه كان يفقد وعيه إلى جانب التِّلال الحارَّة على بُعد أميال من أصغر بُقعة ظليلة، أو ماءٍ. من المُزعج أن تنشر معطفك ليُظلِّل رأس رجل ليفيق من إغمائه. لم أستطع منع نفسي من سؤاله مرَّةً عمَّا يعنيه قدومه إلى هناك، فقال باحتقار: «بالطَّبع، لأكسب المال، ماذا تعتقد؟»، وبعد ذلك أُصيب بالحُمَّى ممَّا استدعى حمله على محفَّة مُثبتة إلى عمود. ولأن وزنه كان يزيد على ستَّة عشر «ستون»([7]) لم تنتهِ مُشاجراتي مع الحمَّالين الذين رفضوا السَّير وتسلَّلوا هربًا بأحمالهم ليلًا، تمرُّدٌ كامل. وذات مساء ألقيتُ فيهم خطبة باللُّغة الإنجليزية مع إشارات لم تفُت واحدة منها أيًّا من السِّتين زوجًا من الأعيُن الماثلة أمامي، وفي صباح اليوم التَّالي وضعتُ المحفَّة في المُقدِّمة ليسير كُلُّ شيءٍ على ما يُرام، وبعد ساعة فُوجئتُ بكل شيء يتحوَّل إلى حُطام فوق إحدى الشُّجيرات. رجل، ومحفَّة، وأنين، وأغطية، ورُعب. كان عمود المحفَّة الثَّقيل قد أدمى أنفه من الاحتكاك، وقد خشي أن أقتل أحدًا. ولكن لم يكُن هناك ظل لأحدهم، فتذكَّرتُ قول الطَّبيب العجوز «قد يكون من المُثير للعلم أن يُراقب التَّغيُّرات الذِّهنية

للأفراد فور حدوثها»، أحسستُ بأنني أتحوَّلُ إلى إنسان مُثير للاهتمام علميًّا، لكن كل ذلك كان عبثًا. في اليوم الخامس عشر رأيتُ النَّهر الكبير مرَّةً أُخرى فتوجَّهتُ نحو المحطَّة المركزيَّة التي كانت تقع قُرب ماء راكد تُحيط به أشجار وغابات كانت تُحيط بأحد جوانبها الأوحال التَّتنة، بينما أحاط بالجوانب الثَّلاثة الأُخرى سياج مُكسَّر من نبات السمَّار.

ولم يكُن يدلُّ على وجود البوَّابة غير فجوة مُهملة. كانت نظرة واحدة للمكان كافية لتعريفك بأيِّ شيطان يُدير ذلك المشهد. خرج من بين البنايات بعض الرِّجال البيض يحملون في أيديهم هراوات طويلة، وتقدَّموا صوبي ثم ما لبثوا أن اختفوا عن ناظري في مكان ما.

تقدَّم أحدهم، رجل متين البنية، عصبي المزاج، له شارب أسود، وعندما أخبرته من أكون أبلغني بطريقة لا تخلو من تشتُّت، واستطرد بأن زورقي البُخاري في قاع النَّهر؛ فصُعقت. ماذا؟ كيف؟ ولماذا؟ ولكن... كل شيء كان «على ما يُرام»، كان «المُدير نفسه» هناك كل شيء جيِّد. «الجميع تصرَّفوا بشكل رائع». وأضاف باهتياج «عليك أن تذهب لمُقابلة المُدير العام على الفور. إنه ينتظرك».

لم أُدرك أهَمِّيَّة ذلك الحُطام على الفور، لكأنني أراه الآن، لكنني غير مُتأكِّد على الإطلاق. من المُؤكَّد أن الأمر -عندما أُفَكِّر به- كان أكثر عبثيَّة من أن يكون طبيعيًّا، ولكنه بدا في تلك اللَّحظة التي أظهر فيها إزعاجًا مُخزيًا لا أكثر. لقد غرق الزَّورق. كانوا قبل ذلك بيومين قد توجَّهوا به إلى أعلى النَّهر والمُدير على ظهره مع بعض الرَّبابنة المُتطوِّعين. وقبل مُضيِّ ساعتين على خروجهم

تحطَّم قاعه إثر اصطدامه ببعض الحجارة، فغرق قُرب الضَّفَّة الجنوبيَّة. تساءلت عمَّا سأفعل، وقد فقدتُ زورقي. وكان عليَّ أن أتوجَّه إلى هناك في اليوم التَّالي، وقد استغرق ذلك مع الإصلاحات التي بدأت بعد إحضاري القطع إلى المحطَّة بضعة أشهُر.

كانت مُقابلتي الأُولى مع المُدير غريبةً. لم يدعني للجلوس بعد مسيرة عشرين ميلًا ذلك الصَّباح. كان مظهره وأسلوبه وصوته كلها عادية، مُتوسِّط الحجم، عادي البنية، وكانت عيناه الزَّرقاوان من البرودة بحيث يستطيع إسقاط نظراته الحادَّة الثَّقيلة كحدِّ الفأس على من يُريد، ولكن حتى في تلك الأثناء كانت بقيَّة ما فيه تنفي مثل هذا القصد، وإلى جانب ذلك لم يكُن هناك غير تعبير باهت على شفتيه، شيء غامض، ابتسامة -ليس ابتسامة- شيء أذكره تمامًا، لكنني لا أستطيع شرحه، كانت تلك الابتسامة باطنيَّةً، على الرغم من أنها كانت تتَّسع للحظة بعد قول شيء ما مثلًا. كانت تأتي في نهايات جُملة كالختم يُوضع على الكلمات ليُحيل معنى أكثرها شيوعًا إلى غموض مُطلق. كان تاجرًا عاديًّا عمل منذ شبابه في تلك الأنحاء، وليس أكثر. كان يفرض الطَّاعة، لكنه لم يكُن يُوحي بحُبٍّ أو برهبة ولا باحترام، بل بعدم ارتياح، نعم عدم ارتياح، لا. عدم ثقة. بل عدم ارتياح، وليس أكثر. لا يمكنكم تصوُّر مدى تأثير مثل تلك الـ... القُدرة. لم تكُن لديه ملكة التَّنظيم أو المُبادرة ولا إصدار الأوامر. كان ذلك واضحًا في أشياءَ كثيرة، مثل وضع المحطَّة البائس. لم يكُن ذا علم، أو ذكاء. لماذا صار إليه أمر المركز؟ ربما لأنه لم يُصَب بمرض أبدًا، وكان قد خَدَم ثلاث فترات لثلاث سنين هناك.

لأنَّ الصِّحَّة الجبَّارة بين جموع من البنيات الضَّعيفة هي في حدِّ ذاتها قُوَّة؛ كان عند عودته إلى الوطن في أثناء الإجازة يُعربد بغطرسة تاجر على اليابسة -مع قليل من الاختلاف- في المظهر فقط. هذا ما كان في الإمكان استنتاجه من خلال حديثه العادي. لم يبتكر شيئًا يومًا. كان في إمكانه المُحافظة على الرُّوتين -كما هو- لا أكثر، لكنه كان عظيمًا. كان عظيمًا بذلك الشَّيء الصَّغير الذي يستحيل معه أن تُدرك أيَّ قُوَّة يمكنها السَّيطرة على هذا الرَّجُل. ولم يسلم ذلك السِّرُّ أبدًا، وربما لم يكُن هناك ثَمَّةَ سِرٌّ في داخله. ومثل هذا الشَّكِّ يجعلك تتوقَّف إذا لم تكُن هناك أيُّ موانع خارجيَّة لذلك. في إحدى المرَّات وكانت الأمراض الاستوائيَّة قد طرحت كل مُوَظَّفي المحطَّة، سُمع يقول: «الرِّجال الذين يأتون إلى هنا يجب أن يكونوا بلا أحشاء»، ثم ختم كلامه بابتسامته تلك التي بَدَت وكأنها باب يُفضي إلى ظلمة يتعهَّدها. تتخيَّلون أنكم رأيتم أشياءَ، لكنَّ الخاتم قد طُبع، وعندما كانت تزعجه شجارات البيض المُستمرَّة في أوقات الطَّعام حول الأسبقيَّة، كان يأمر بتجهيز طاولة مُستديرة، كان لا بُدَّ أن يبني حولها فيما بعد بيتًا خاصًّا. كانت تلك غُرفة الطَّعام في المحطَّة. كان مكان جلوسه له الأفضليَّة، أمَّا الآخرون فلا مكان لهم. تشعر أحيانًا بأن هذا هو ما يُريد، فهو لم يكُن مُتمدِّنًا، ولا غير مُتمدِّن. كان هادئًا يأمر صبيَّه، وهو شاب زنجي من السَّاحل، أن يُعامل البيض بإهانة مُستفزَّة أمام بصره.

بدأ الكلام عندما رآني. كُنتُ قد قضيتُ مدة طويلة في الطَّريق، إلا أنه لم يصبر، فبدأ من دوني. كان يجب إنقاذ المَحطَّات في أعلى النَّهر. وقد كانت هناك حالات تأخير عديدة لم يعد يعرف معها من مات، ومن لم يزل على قيد

الحياة، وماذا أصابهم، وغير ذلك بكثير. لم يُبدِ أيَّ اهتمام بتفسيراتي له في أثناء عبثه بعصا مصنوعة من شمع الأختام، فأعاد على سمعي مرَّات عديدة أن الوضع «سيِّئ جدًّا، سيِّئ جدًّا»، كانت هناك شائعات بأن إحدى المحطَّات المهمَّة مُهدَّدة، وأن رئيسها السَّيِّد كورتز مريض، فتمنَّيتُ ألا يكون هذا صحيحًا. لقد كان السَّيِّد كورتز.....

أحسستُ بالتَّعب والانهيار. اللَّعنة على كورتز، فكَّرتُ، ثم قاطعته بقولي إنني سمعتُ بالسَّيِّد كورتز على السَّاحل، فتمتم قائلًا: «آه، إذن فهم يتحدَّثون عنه هناك»، ثم بدأ يؤكد لي من جديد أن السَّيِّد كورتز كان أفضل مُوَظَّف عنده، رجل ليس مثل الرِّجال، وأهميته للشَّركة لا تُقدر، وهكذا فهمتُ سبب قلقه. كان على حسب قوله «غير مرتاح بالمرَّة، بالمرَّة»، وتململ فوق كُرسيِّه بعض الوقت، ثم قال: «آه، السَّيِّد كورتز»، كسر العصا الشَّمعيَّة، وبدا ذاهلًا من الحادث، وبعد ذلك أراد أن يعرف كم يستغرق.. قاطعته ثانيةً؛ إذ أدَّى الجوع ووقوفي الطَّويل إلى ثورة وحشيَّة. قُلتُ: «وكيف يُمكنني أن أعرف وأنا حتى لم أَرَ الحُطام بعد شهور من دون شكٍّ»، وبدا لي أن ذلك الحديث عبثي. قال: «شهور، حسنًا، لنقل ثلاثة أشهر قبل أن نبدأ، نعم، فهذا كافٍ لإنجاز الأمر»، وسارعتُ أخرج من كوخه (إذ كان يعيش وحيدًا في كوخ طيني له ما يُشبه الشُّرفة)، وأنا أُردِّد بيني وبين نفسي رأيي فيه بوصفه أبلهَ مهذارًا، لكنني عدَلتُ عن هذا الرَّأي عندما تذكَّرتُ وأنا أجفل بأيِّ دقَّة قدر الوقت المطلوب لإنجاز الأمر.

عُدتُ للعمل في اليوم التَّالي مُولِّيًا ظهري للمحطَّة، وبدا لي أنه بهذه الطَّريقة فقط يمكنني السَّيطرة على حقائق الحياة التي تمنح الخلاص، لكنك ترى أحيانًا أن عليك أن تنظر حولك، وهكذا رأيتُ المحطَّة وأولئك الرِّجال الذين يسيرون بلا هدف في السَّاحة التي ألهبتها أشعَّة الشَّمس، كثيرًا ما سألتُ نفسي عن معنى كل ذلك. كانوا يتجوَّلون هنا وهناك بعصيِّهم السَّخيفة في أيديهم كجمع من المهاجرين الكفرة المسحورين داخل سياج عفن. كانت كلمة «عاج» تملأ الأسماع همسًا وتنهُّدًا حتى كأنهم كانوا يصلُّون لها. نفخت فيها جرثومة الجشع الأحمق فنشرتها مثل هبَّة ريح قادمة من جيفة، يا إلهي! لم أَرَ في حياتي ما هو أكثر زيفًا. وفي الخارج كان الخلاء السَّاكن المُحيط بهذه البُقعة من الأرض يذهلني مثل شيء عظيم لا يُقهر، مثل شر أو حقيقة تنتظر بصبر نافد انتهاء هذا الغزو الخيالي.

هذه الشُّهور، حسنًا، لا يهم، لقد حدثت أشياء كثيرة، فذات مساء انفجرت حظيرة أعشاب مليئة بالقماش الخام والقطن والقماش المُزركش والقلائد وأشياء أُخرى لا أعرفها، مُحدثة حريقًا فُجائيًّا. بدا كما لو أن الأرض انشقَّت وأطلقت نيرانها الثَّائرة لتأتي على تلك النِّفايات. كُنتُ أُدخِّن غليوني بهدوء إلى جانب زورقي المُفكَّك أُشاهد الرِّجال يقطعون النَّباتات في ضوء النِّيران بأيديهم المرفوعة عاليًا عندما جاء الرَّجُل المتين ذو الشَّارب لينتشل من النَّهر دلوًا من الصَّفيح مُؤكِّدًا لي أن الجميع «كانوا يتصرَّفون بشكل رائع، رائع»، وغرف ما يساوي رُبعه من الماء ورجع عائدًا، ولاحظتُ أن هناك ثُقبًا في قاع الدَّلو.

اتَّجهت إلى الأعلى ببُطءٍ فلم يكُن هناك داعٍ للعجلة. كان الشَّيء كله قد تحطَّم مثل علبة كبريت. لم يكُن هناك أمل منذ البداية. كان اللَّهَب قد امتدَّ مُجبرًا الجميع على التَّراجع، مُضيئًا كل شيء، ثم خبا مُحوِّلًا الحظيرة إلى كومة من الحطب المُتأجِّج بوحشيَّة، وكان زنجيٌّ قيل إنه تسبَّب في إشعال الحريق بصورة ما كان يُضرب بالقُرب من هناك، وسواء كان ذلك صحيحًا أم لا فالرَّجل أطلق صرخات ألم رهيبة. رأيته بعد ذلك بأيام جالسًا في بُقعة ظليلة يبدو عليه المرض مُحاولًا مُداواة نفسه، بعد ذلك نهض مُتَّجِهًا إلى حيث احتوته البرِّيَّة في جوفها بصمت من جديد، وبينما كُنتُ أتقدَّم من الظَّلام إلى حيث الوهج وجدت نفسي خلف رجلين يتحدَّثان، وسمعت اسم كورتز يتردَّد، ثم «استفد من ذلك الحادث المشؤوم»، كان المُدير أحد هذين الرَّجلين. تمنَّيتُ له مساءً طيِّبًا فقال: «هل شاهدت في حياتك شيئًا مثل هذا؟ إنه غير معقول»، ومضى ذاهبًا، لكن الآخر بقي. كان مُوَظَّفا من الدَّرَجة الأوَّلى؛ شابًّا مُهذَّبًا مُتحفِّظًا قليلًا له لحية مفروقة وأنف أحمر. كان مُنعزلًا عن المُوَظَّفين الآخرين الذين كانوا يقولون إنه يتجسَّس عليهم لصالح المُدير. أمَّا بالنِّسبة لي فلم أكُن قد تحدَّثتُ معه إلا نادرًا. تكلَّمنا، وشيئًا فشيئًا ابتعدنا عن الحُطام الذي كان يُخرج صوتًا كالهسيس، ثم دعاني إلى غُرفته في مبنى المحطَّة الرَّئيسي. أشعل عود ثقاب فأدركتُ أن هذا الشَّابَّ الأرستقراطي لم يكُن يملك حقيبة مطليَّة بالفِضَّة وحسب، بل وشمعة كاملة خاصَّة به أيضًا. فحتى ذلك الوقت كان المُدير هو الوحيد الذي له حقٌّ مُفترض في الشُّموع. كانت الحظائر المحليَّة تغطي الجدران الطِّينيَّة ومجموعة من الحراب والرِّماح والتُّروس والسَّكاكين مُعلَّقة تذكارات للصَّيد. كان العمل المُوكل لهذا الشَّابِّ

هو صُنع الطُّوب. هذا ما كُنتُ أُخبرتُ به، ولكن لم تكُن هناك كسرة طوب واحدة في المحطَّة بأكملها على الرغم من أنه كان هناك منذ أكثر من سنة في الانتظار. بدا وكأن صُنعه الطُّوب يتطلَّب شيئًا لا أدري ما هو. ربما قشٌّ، إلا أنه لم يكُن موجودًا هناك على أيِّ حال، ولأن إرساله من أوروبا كان مسألة غير مُحتملة فإنني لم أتبيَّن سبب انتظاره، ربما لنوع من الإبداع الخاص. لقد كان الجميع ينتظر، جميع المُهاجرين السِّتَّة عشر أو العشرين، ينتظرون شيئًا ما، وفي الواقع فإن ذلك لم يبدُ لي عملًا غير مُناسب، وذلك للطَّريقة التي مارسوا فيها الانتظار. وعلى الرغم من ذلك فلم يأتهم غير المرض كما لاحظتُ. كانوا يقضون أوقاتهم يتسلُّون بالنَّميمة، ويتآمر بعضهم على الآخر بطريقة حمقاء. كان هناك جوٌّ من التَّآمر يُحيط بتلك المحطَّة، لكنَّ شيئًا لم ينتج عنه بالطَّبع. كان ذلك زائفًا مثل أيِّ شيء آخر، مثل الادِّعاء بعمل الخير الكامن خلف المشروع كله، مثل حديثهم، مثل حكومتهم، مثل تظاهرهم بالعمل. كان الشُّعور الحقيقي الوحيد هو الرَّغبة في العمل في مكتب تجاري، حيث يمكن الحصول على العاج. ليتمكَّنوا من الحصول على نسب من الأرباح. من أجل ذلك تآمروا وافتروا وحقد بعضهم على الآخر، لكنَّ أحدهم لم يرفع خنصره ليعمل بجِدٍّ، لا لم يفعلوا. بحقِّ السَّماء إن هناك أمرًا في هذا العالم الذي يسمح لشخص أن يسرق حصانًا، بينما يُحرم آخر من النَّظر إلى الرَّسَن. يسرق حصانًا في وضح النَّهار. حسنًا جدًّا. لقد فعلها، ربما يستطيع الرُّكوب، لكنَّ هناك طريقة في النَّظر إلى رَسَن تستفزُّ أطهر القدِّيسين.

لم تكُن لديَّ فكرة عن سبب تصرُّفه بصورة ودِّية تجاهي، ولكن ما إن بدأنا نتحدَّث هناك حتى خطر لي أن زميلي يُحاول الوصول إلى شيء ما، كان

يستجوبني في الواقع. لمَّح إلى أوروبا باستمرار، إلى النَّاس الذين يُفترض أني عرفتهم هناك، مُوجِّهًا أسئلة تقود نحو معارفي في المدينة الضَّريحيَّة، وغير ذلك. كانت عيناه الصَّغيرتان تلمعان بالفضول مثل أسطوانات الميكا([8]) على الرغم من أنه حاول أن يبقى على شيء من الأنفة. دُهشتُ في البداية، لكني ما لبثتُ أن استعجلت رؤية ما يمكنه أن ينتزع منِّي. لم أستطع تخيُّل ما في داخلى ممَّا أستطيع إفادته به، كان من المُمتع مُشاهدته مُرتبكًا؛ إذ لم يكُن داخل جسدي غير البرود، ولم يكُن داخل رأسي غير ذلك المَرْكَب النَّعِس. كان من الواضح أنه ظنَّني مُراوغًا بلا حياء. فلقد غضب أخيرًا، ولكي يُخفي حركة تدلُّ على الحنق الشَّديد، تثاءب. نهضتُ، وشاهدتُ رسمًا زيتيًّا على لوحة تُمثل امرأة ملفوفة بقطع قماش معصوبة العينين تحمل مشعلًا مُضاءً. كانت خلفيَّة الصُّورة قاتمةً، تكاد تكون سوداءَ، وكانت حركة المرأة مهيبة، أمَّا تأثير ضوء المُشعَل على وجهها فكان يُنبئ بالشَّر.

أسرني المشهد، ووقف هو بالقُرب مِنِّي بأدب يحمل زجاجة شمبانيا فارغة سعتها نصف «باينت»([9]) وقد ثُبِّتت داخلها الشَّمعة. قال وهو يُجيب عن سُؤالي إن السَّيِّد كورتز قد رسم ذلك -في هذه المحطَّة قبل عام- بينما كان ينتظر ما يحمله إلى مكتبه التِّجاري. قُلتُ له: «أخبرنى من فضلك مَن السَّيِّد كورتز هذا؟»، أجاب باختصار وهو ينظر بعيدًا: «رئيس المحطَّة الدَّاخليَّة»، قُلتُ ضاحكًا: «أشكر كرمك، وأنت صانع الطُّوب في المحطَّة المركزيَّة، الكل يعرف ذلك»، صمت فترة، ثم قال أخيرًا: «إنه أُعجوبة، إنه مبعوث الرَّحمة والعلم والتَّقدُّم، ويعلم الشَّيطان مبعوث أيِّ شيء آخر هو، إننا نُريد...»، وبدأ فجأةً كمن يُلقي خطبة: «... من أجل نشر الهدف الذي أُوكل إلينا في أوروبا،

درجة ذكاء عالية وتعاطف أشمل ووحدة هدف»، سألته: «من يقول هذا؟»، أجاب: «كثير منهم، وبعضهم يكتب هذا أيضًا، وهكذا يأتي هو إلى هنا مخلوقًا مُميَّزًا كما يجب أن تعلم»، قُلتُ مُقاطعًا وقد أصابتني الدَّهشة: «ولماذا عليَّ أن أعلم؟»، إلا أنه لم يهتم... «نعم، إنه اليوم رئيس أفضل محطَّة وفي العام المقبل سيكون مُديرًا مُساعدًا، وبعد ذلك بعامين.. لكنني أجرؤ على القول إنك تعرف ماذا سيُصبح خلال عامين. إنك من العُصبة الجديدة، عُصبة الفضيلة؛ فالذين أرسلوه بشكل خاص قد أوصوا بك أيضًا.

لا تقُل غير ذلك، فلديَّ عينان أُصدِّقهما».

غمرني ضوء الحقيقة. لقد مارس معارف خالتي القادرون تأثيرًا لم أتوقَّعه على ذلك الشَّابِّ، وكدتُ أنفجر بضحكة. سألته: «وهل تقرأ مُراسلات الشَّركة السِّرِّيَّة؟»، لم يكُن لديه ما يقوله. كان ذلك مُسلِّيًا حقًّا، وتابعت بقسوة: «طالما أن السَّيِّد كورتز هو المُدير العام فلن تُتاح لك الفُرصة».

أطفأ الشَّمعة فجأةً، وذهبنا معًا للخارج. كان القمر مُرتفعًا وأشباح رجال تسير بتراخٍ تصبُّ دلاء الماء على الوهج، بينما استمرَّ صوت الهسيس، وتصاعد البُخار في ضوء القمر، ومن مكان في الجوار جاء صوت أنين الزِّنجي المضروب... «أيُّ ضجَّة يُثيرها هذا المُتوحِّش».

قال صاحب الشَّارب الذي لا يعرف الكَلَل وهو يقترب منَّا: «كانت عقوبة مُناسبة، خطيئة، عقاب، ضرب بلا شفقة، تلك هي الطَّريقة الوحيدة لمنع أيِّ حريق في المُستقبل. كُنتُ للتَّوِّ أقول للمُدير...»، ولاحظ رفيقي فشعر بالخزي. «ألم تَنَم بعد؟»، قال بمودَّة ذليلة: «هذا طبيعي حقًّا، خطر، هياج»،

واختفى. تابعتُ سيري إلى ضفَّة النَّهر والآخر يتبعني، وترامت إلى سمعي همهمة مريرة «كومة من الفاشلين»، كان المُهاجرون المُنقسمون إلى مجموعات يُثرثرون ويتناقشون، وكثير منهم يحملون العصيَّ في أيديهم، وأعتقد جازمًا أنهم كانوا يأخذون عصيَّهم معهم عندما ينامون. وخلف السِّياج ظهر جسم الغابة شبحيًّا في ضوء القمر، ومن خلال الحركة الخفيضة والأصوات الخافتة الآتية من السَّاحة المنكوبة مضى سُكون الأرض ليستقرَّ في القلب، في سرِّيته، في عظمته، في الحقيقة المُحيِّرة لحياته الخفيَّة. الزِّنجي الجريح يئنُّ بضعف في مكان قريب، ثم أخرج زفرة عميقة جعلتني أُسرع الخُطى بعيدًا عن ذلك المكان. شعرتُ بيد تحت ذراعي.. «سَيِّدي العزيز»، قال.. «لا أُريدك أن تُسيء فهمي بهذه المُقابلة بكثير، ولا أُريده أن يأخذ فكرة خاطئة عن تصرُّفي...».

تركتُ مفيستوفيليس([10]) الورقي يستمرُّ في حديثه، وبدا لي أنني لو حاولتُ لاستطعتُ اختراقه بإصبعي، حيث لن أجد غير قذارة مُتحلِّلة ربما، لقد كان كما تلاحظون يُخطِّط ليُصبح المُدير المُساعد عمَّا قريب تحت إمرة المُدير الحالي. ولاحظتُ أن مجيء كورتز هذا قد أزعج الاثنين كثيرًا. تحدَّث باستفاضة، ولم أُحاول أن أُوقفه. كُنتُ أتَّكئ إلى حُطام زورقي الذي كان قد سُحب فوق المُنحدر مثل هيكل حيوان

نهري ضخم. كانت رائحة الطِّين.. الطِّين العتيق، تملأ خياشيمي، وسكون الغابة البدائيَّة المُطبق أمام ناظري. كان هناك بعض البُقع المُتوهِّجة قُرب الجدول الأسود، والقمر قد نشر غلالة فضِّيَّة رقيقة فوق كل شيء، فوق

العُشب العفن والطِّين وجدار الخُضرة القاتم الذي يفوق في ارتفاعه جدار معبد، وفوق النَّهر العظيم الذي كُنتُ أراه من خلال فتحة كئيبة مُتلألئًا طافحًا يجري في الجوار من دون همسة. كان كل ذلك عظيمًا، مُنتظرًا، صامتًا، بينما الرَّجُل يهذر بحديث عن نفسه، وتساءلت عمَّا إذا كان السُّكون المُخيِّم فوق وجه الأرض النَّاظر إلينا نحن الاثنين يدعونا أم يُهدِّدنا. ماذا كُنَّا نحن الضَّالين في هذه البُقعة؟ هل يمكننا السَّيطرة على ذلك الشَّيء الأبكم؟ أم هو الذي سيُسيطر علينا؟ شعرتُ كم كان ذلك الشَّيء الأبكم، وربما الأصم أيضًا كبيرًا، كبيرًا بشكل مقيت. ما الذي كان يجري هناك؟ أمكنني رؤية بعض العاج يخرج من هناك، ولقد سمعتُ عن ذلك بما فيه الكفاية أيضًا، لكنني لم أرسم أيَّ صورة له، ليس أكثر ممَّا لو سمعت أن ملاكًا أو شيطانًا كان هناك. صدَّقت ذلك بالطَّريقة نفسها التي قد يصدق فيها أحدكم أن هناك سُكَّانًا على كوكب المريخ. عرفتُ مرَّةً صانع أشرعة اسكُتلنديًّا كان مُقتنعًا تمامًا بوجود سُكَّان في المريخ، وكان إذا سأله أحدهم عن مظهرهم أو الطَّريقة التي يتصرَّفون بها يخجل ويُتمتم شيئًا عن «مشيهم على أربع»، وإذا ابتسمت فإنه -على الرغم من أنه في السِّتين- سيطلبك عندها للنِّزال. لم أكُن لأذهب بعيدًا إلى حدِّ القتال من أجل كورتز، ولكنني وصلتُ إلى حدِّ الكذب. تعلمون أنني أكره الكذب، أمقُتُه، ولا أستطيع احتماله، ليس لأنني أكثر استقامةً من الآخرين، بل ببساطة لأنه يُروِّعني. إن فيه عفن الموت، وطعم الفناء، وهو عين ما أكره وأمقُتُ في هذا العالم، وما أرغب في نسيانه. إنه يُشقيني ويُمرضني كما يفعل بي قضمُ شيء عفن. حساسية كما أعتقد. حسنًا، لقد اقتربتُ منه بما فيه الكفاية عندما جعلت هذا الشَّابَّ الأحمق يُصدِّق كل ما يرغب في تخيُّله

عن نفوذي في أوروبا. وقد أصبحتُ في لحظة لا أقل ادِّعاءً عن بقيَّة المُهاجرين المسحورين. كان ذلك بسبب فكرة كانت ستُساعد كورتز الذي لم أكُن قد قابلته بعد كما تفهمون. كان بالنِّسبة لي كلمة. لم أَرَ الرَّجُل بأكثر ممَّا ترونه. أترونه؟ أترون القصَّة؟ أترون أيَّ شيء؟ يبدو لي وكأنني أُحدِّثكم عن حلم، أقوم بمُحاولة عبثيَّة؛ لأنه ليس هناك شيء يرتبط بالحلم يستطيع أن يُوصل مشاعر الحلم، ذلك المزيج من العبث والدَّهشة والحيرة في ارتعاشة ثورة كفاح، تلك الفكرة بأنك أسير اللا معقول الذي هو من صميم الحلم.

وصمت لفترة.

«لا، مُستحيل.. مُستحيل أن توصل مشاعر الحياة في أيِّ فترة من وجودك، تلك التي تصنع حقيقتها، معناها، جوهرها الحاد الخارق، مُستحيل. إننا نحيا عندما نحلم بمفردنا».

توقَّف مرَّةً أُخرى. كم يُفكِّر بعُمق، ثم تابع:

«إنكم بهذا أيُّها الأصدقاء ترون أكثر ممَّا كُنتُ أرى وقتها. أنتم بالطَّبع ترونني، أنا الذي تعرفونه...».

كان الظَّلام قد أصبح دامسًا لدرجة أننا نحن المُستمعين لم نكن نكاد يرى أحدنا الآخر، وكان هو منذ وقت طويل من جلوسه على حدة قد تحوَّل بالنِّسبة لنا إلى صوت ليس أكثر. لم يتفوَّه أحدنا بكلمة، وربما كان الآخرون نائمين، لكني كُنتُ مُستيقظًا أستمع. أصغيت لكل جملة وكل كلمة كان من شأنها أن

تُعطيني دليلًا على القلق الخفيف الذي كانت تُوحي به تلك الحكاية التي بَدَت وكأنها تشكل نفسها دون شفاه آدميَّة في هواء النَّهر اللَّيلي الثَّقيل.

«نعم تركته يتحدَّث». بدأ «مارلو» من جديد.

«.. وينسج ما يودُّ من أفكار حول القوى التي تقف خلفي. نعم، لكنَّ شيئًا لم يكُن خلفي إلا ذلك المَرْكَب المُحطَّم القديم التَّعِس الذي كُنتُ أتَّكئ عليه»، بينما أخذ هو يتكلَّم بطلاقة عن (ضرورة أن ينجح كل إنسان)، وعندما يأتي شخص هنا تُدرك أنه لم يأتِ للتَّطلُّع للقمر، كان السَّيِّد كورتز (عبقريًّا كونيًّا)، ولكن حتى العبقري يجد أن من السَّهل له استخدام (الأدوات المُناسبة، والرِّجال الأذكياء)، لم يصنع الطُّوب لأن عائقًا جسديًّا كان يحول دون ذلك، كما كُنتُ قد علمت من قبل، وإن كان يقوم بأعمال السِّكرتارية للمُدير فما ذلك إلا لأن (أي شخص عاقل لا يمكن أن يرفض بطيش ثقة رؤسائه) هل رأيت ذلك؟ لقد رأيته. وماذا كُنتُ أطلب أكثر من ذلك؟ ما كُنتُ أطلبه حقًّا هو –وحق السَّماء- مسامير لأبدأ العمل، لأسُدَّ الثُّقب. كُنتُ أُريد المسامير. كانت هناك حقائب منها عند الشَّاطئ، حقائب مُكوَّمة، مُمزَّقة، مشقوقة، وبين خطوة وأخرى كانت قدمك تتعثَّر بمسمار في ساحة المحطَّة إلى جانب التَّلِّ، وبعضها وصل إلى غابة الموت. كان في إمكانك أن تملأ جيوبك بالمسامير لكي تُوفِّر على نفسك مشقَّة الانحناء، ولكن لم يكُن هناك مسمار واحد، حيث كان مطلوبًا. كانت لدينا سبائك يمكن أن تفي بالغرض، ولكن لم يكُن لدينا ما نثبِّتها به، وفي كل أسبوع كان المُراسل، وهو زنجي مُتوحِّد، يُغادر محطَّتنا إلى الشَّاطئ بحقيبة الرَّسائل على كتفه، وعصا في يده. وكانت قافلة من السَّاحل

تأتي مرَّات عديدةً كل أسبوع بالبضائع، قماش خام برَّاق مُشعٌّ يجعل الجسم ينتفض بمُجَرَّد النَّظر إليه، وشراب يبلغ ثمن الكوارت([11]) منه بنسًا واحدًا، ومناديل قُطنيَّة مُنقَّطة بنقاط عشوائيَّة، ولكن بلا مسامير. كان في إمكان ثلاثة حمَّالين أن يُحضروا كل ما يلزم لأُصلح المَرْكَب.

كان قد بدأ يُصبح أكثر كتمانًا للسِّرِّ، لكنني أعتقد أن موقفي غير المُتعاون قد أغضبه في النِّهاية؛ إذ رأى أن من الضَّروري إبلاغي أنه لا يخاف إلهًا ولا شيطانًا، ناهيك بالرِّجال. قُلتُ له إنني أرى ذلك جيِّدًا، لكنَّ كمية محدودة من المسامير كانت كل ما أُريد، وإذا عرف السَّيِّد كورتز ذلك لأراد المسامير هو أيضًا. إن الرَّسائل تذهب إلى الشَّاطئ كل أسبوع.. «سَيِّدي العزيز»، صرخ قائلًا: «إنني لا أكتب إلا بناءً على أمر». طلبتُ المسامير. لا بُدَّ أن هناك طريقة ما أمام رجل ذكي. غيَّر أسلوبه، أصبح أكثر بُرودًا، وفجأةً بدأ يتكلَّم عن فرس النَّهر، وهل كان يُزعجني في أثناء نومي على ظهر الزَّورق (كُنتُ بالقُرب منه ليلًا ونهارًا) كان هناك فرس نهر عجوز تعوَّد أن يخرج إلى ضفَّة النَّهر ليلًا ويتجوَّل في أنحاء المحطَّة، وكان من عادة المُهاجرين أن يتجمَّعوا ويفرغوا عليه كل بُندقيَّة كانت تقع تحت أيديهم، بل إن بعضهم انتظره ليالي، لكن كل تلك الطَّاقة ذهبت هباءً.. «كانت لذلك الحيوان حياة مسحورة»، قال الرَّجُل: «ولكن في إمكانك أن تقول هذا فقط عن المُتوحِّشين في هذا البلد. ليس من رجل، أتفهمني؟ ليس من رجل هنا يحتمل حياة مسحورة». وقف لحظة تحت ضوء القمر وقد مال أنفه الأحمر الرَّقيق قليلًا والتمعت عيناه الزُّجاجيَّتان دون أن تطرفا ثم مضى بعد أن تمنَّى لي ليلة سعيدة باقتضاب. أمكنني أن أُلاحظ انزعاجه وحيرته الكبيرة، وهو ما جعلني أكثر أملًا ممَّا كُنتُ طوال أيام. وكان

عزاءً كبيرًا لي أن أتحوَّل عن ذلك الشَّخص إلى صديقي المُتنفِّذ، والزَّورق الصَّفيحي المُهشَّم المُلتوي المُحطَّم. تسلَّقتُ ظهر الزَّورق الذي كان يُطرقع تحت قدمي مثل علبة بسكويت فارغة من (هونتلي وبالمر) وقد ركلتُ فوق ميزاب. لم يكُن صُلبًا دقيقَ الصُّنع، ولم يكُن شكله جميلًا، لكنني بذلتُ جُهدًا كبيرًا في هذا الزَّورق ممَّا جعلني أُحِبُّه، فلم يكُن في وسع أيِّ صديق مُتنفِّذ أن يخدمني أفضل منه. لقد منحني الفُرصة لأعرف ما عليَّ أن أفعل، لا، لا أُحِبُّ العمل، بل أُفضِّل أن أسترخي وأُفكِّر في جميع الأشياء الرَّائعة التي يمكن فعلها. لا أُحِبُّ العمل -لا أحد يُحِبُّه- إنني أحب ما في العمل -حيث الفُرصة لأن تجد ذاتك، حقيقتك الخاصَّة بك لذاتك لا للآخرين- فذلك ما لا يمكن للآخرين أن يعرفوه. إن في إمكانهم أن يروا الظَّاهر فقط، لكنَّهم لا يعرفون ماذا يعنيه حقًّا.

لم أندهش لرُؤية شخص يجلس في المُؤَخِّرة على ظهر المَرْكَب بساقيه المُتدلِّيتين فوق الطِّين. كُنتُ قد صاحبتُ الميكانيكيين القلائل في المحطَّة، من أولئك الذين كان المُهاجرون الآخرون يحتقرونهم لنقائصهم السُّلوكيَّة كما أعتقد. كان هذا هو كبير العُمَّال -كانت حرفته الأصليَّة صُنع المراجل- وكان عاملًا جيِّدًا. كان هزيلًا بارزَ العظام أصفرَ الوجه، ذا عينين واسعتين. كانت تبدو على وجهه مظاهر الاضطراب. أمَّا رأسه فكان أملسَ كراحة يدي، لكنَّ شعره المُتساقط بدا وكأنه التصق بذقنه التي نبتت في مكانها الجديد، فقد تدلَّت لحيته حتى وصلت إلى خاصرته. كان أرملَ له ستَّة أطفال صغار (كان قد تركهم في رعاية أُخت له ليأتي إلى هنا)، وكانت مُتعة حياته هي تطيير الحمام، التي كان شغوفًا وخبيرًا بها. كان مفتونًا بالحمام. وكثيرًا ما كان يحضر

من كوخه بعد ساعات من العمل ليتكلَّم عن أطفاله وحمامه، وعندما كان يضطر –في أثناء عمله- إلى أن يزحف في الوحل تحت قاع المَرْكَب، كان يربط لحيته بما يُشبه فوطة بيضاء كان قد أحضرها معه لهذا الغرض، لها أطراف يُمرِّرها من فوق أُذنيه، وفي المساء كان يُرى جاثيًا على ضفَّة النَّهر يغسل الفوطة في الجدول بعناية كبيرة، ثم ينشرها بوقار فوق إحدى الشُّجيرات لتجِفَّ.

صفعته على ظهره وأنا أُصيح: «سنحصل على المسامير»، فهبَّ واقفًا على قدميه، وقال كمن لا يُصدِّق أُذنيه: «لا! المسامير!»، ثم أضاف بصوت مُنخفض: «أنت، هه؟»، لا أعرف لِمَ تصرَّفنا كالمجانين؛ فقد وضعتُ إصبعي على طرف أنفي وأومأتُ بغموض.. «أنت رائع»، هتف قائلًا، ثم طرقع بأصابعه فوق رأسه رافعًا إحدى قدميه، وحاولتُ أن أرقص، وقفزنا فرحًا فوق ظهر الزَّورق المعدني، فصدرت قعقعة مُخيفة من هيكله ردَّدتها الغابة العذراء على الضفَّة الأُخرى من الجدول مثل قصف الرَّعد فوق المحطَّة النَّائمة. ولا بُدَّ أن ذلك أيقظ بعض المُهاجرين في أكواخهم؛ إذ ظهر شبح رجل حجب باب كوخ المُدير المُضاء واختفى، ثم ظهر شبح ثانٍ، فآخر بعد ذلك، ثم اختفى الباب نفسه أيضًا. توقَّفنا فساد من جديد الصَّمت الذي ذهبت به خبطات أقدامنا مُرتدًّا إلينا من البَرِّيَّة. وبدا جدار الخُضرة العظيم، وهو كتلة كثيفة من الجذور والأغصان والأوراق والفروع المُتشابكة بسكونه في ضوء القمر مثل غزو عاصف لحياة صامتة، موجة متدحرجة من النَّباتات التي تكوَّمت وعلت مُوشكة على السُّقوط في الجدول، مُستعدَّة لاجتياح الرِّجال ضئيلي الحجم مِنَّا وإرسالهم نحو حتفهم، لكنها لم تتحرَّك. وتناهى إلى أسماعنا عن بُعد الانفجار المُميت

للزَّبد العظيم وبعض شخير كما لو أن سمكة الأكصور([12]) كانت تستحمُّ في أَلَقِ النَّهر العظيم.. «في النِّهاية»، قال صانع المراجل بلهجةٍ مُتعقِّلةٍ: «لِمَ لا نحصل على المسامير؟»، حقًّا ولِمَ لا، فليس هناك من سبب يحول بيننا وبين الحصول على المسامير.

«ستكون هنا خلال ثلاثة أسابيع»، قُلتُ له بثقة.

لكنها لم تأتِ، بل أتت بدلًا منها غزوة، بلاء، عقاب إلهي أتى على دُفعات خلال الأسابيع الثَّلاثة التَّالية، على رأس كل دُفعة منها حمار يحمل رجلًا أبيضَ بملابسَ نظيفة وأحذية غامقة، ينحني من ذلك الارتفاع يمينًا ويسارًا للحُجَّاج المُتأثِّرين. كانت عُصبة من الزُّنوج المنكودين مُتقرِّحي الأقدام تسير خلف كل حمار. وطُرحت في السَّاحة خيام ومقاعد خفيفة وصناديق حديديَّة وحقائب بيضاء وبالات بُنِّيَّة، وخيَّم جوٌّ من الغموض العميق على زحام المحطَّة. وصلت خمس دُفعات من هذا النَّوع بفوضاها السَّخيفة الهاربة بأسلاب لا تُعَدُّ من تجهيزات الدَّكاكين والمخازن وكأنهم كانوا يجرُّونها عقب كل غزوة للبَرِّيَّة، من أجل قسمة عادلة. كانت فوضى لا فكاك منها لأشياء مقبولة في ذاتها، لكنَّ حماقة البشر حوَّلتها إلى شيء أشبه بفساد السَّرقة.

كانت تلك العُصبة المُكرِّسة تُطلق على نفسها اسم (بعثة إلدورادو الاستكشافيَّة)، وأعتقد أن أفرادها تعاهدوا على السِّرِّيَّة. كان حديثهم أشبه بحديث المُغامرين العُتاة. كان كلامًا طائشًا بلا قسوة، شَرِهًا بلا تهوُّر، قاسيًا بلا شجاعة، ولم تكُن هناك ذرَّة من الحكمة أو الجِدِّيَّة عند أيِّ فرد من أفراد تلك العُصبة، ولم يكُن يبدو أنهم يُدركون أن هذه الأشياء مطلوبة لاستمرار العالم.

كانت رغبتهم هي أن ينتزعوا الكنز من أحشاء الأرض من دون أن يملكوا من الهدف النَّبيل إلا ما يملكه لصُّ الخزائن. ولا أدري من الذي دفع ثمن المشروع النَّبيل، لكن عمَّ مُديرنا كان قائدَ تلك العُصبة.

كان بمظهره الخارجي أشبه بجزَّار في حي فقير، تحمل نظراته خُبثًا ناعسًا، وقد حمل كرشه الضَّخم بفخر فوق ساقيه القصيرتين. وبينما كانت عصابته تزعج المحطَّة، لم يكُن يكلم أحدًا غير ابن أخيه. كان الاثنان يُشاهَدان وهما يتجوَّلان في الأنحاء طوال النَّهار برأسيهما المُتقاربين في مُسامرة أبديَّة.

كُنتُ قد توقَّفت عن إقلاق نفسي بالمسامير، فقُدرة استيعاب المرء لذلك النَّوع من الحماقة محدودة أكثر ممَّا تتصوَّرون. قُلتُ أنتظر وأترك الأشياء تجري. كان لديَّ كثير من الوقت للتَّأمُّل، وبين الحين والآخر كُنتُ أُفَكِّر بكورتز. لم أكُن مُهتمًّا به. كلَّا، لكنني كُنتُ مُتشوِّقًا لمعرفة ما إذا كان هذا الرَّجُل الذي خرج مُسلَّحًا بأفكار من نوع ما، سيصعد إلى القمَّة أخيرًا، وكيف سيُدير عمله من هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢)

ذات مساءٍ وأنا مُستلقٍ على ظهر زورقي سمعتُ أصواتًا تقترب. كان العَمُّ وابن أخيه يتمشَّيان على طول الضَّفَّة. توسَّدتُ ذراعي مرَّةً أُخرى، وكدت أغفو حينما قال شخص وكأنه يهمس في أُذني: «إنني أقلُّ إيذاءً من طفل صغير، لكنني لا أحب تلقِّي الأوامر، هل أنا المُدير أم لا؟ لقد أمرتُ أن أرسله إلى هناك، لا يُعقل».. وبدأتُ أُدرك أنهما يقفان على الشَّاطئ مُحاذيين مُقدِّمة الزَّورق، أسفل رأسي مُباشرةً. لم أقُم بحركة. لم يخطر ببالي أن أقوم بأيِّ حركة. كُنتُ نَعِسًا.. «إنه لمُزعج حقًّا»، قال العَمُّ بصوت يُشبه نخرة الخنزير، فأجاب الآخر: «لقد طلب من الإدارة أن يُرسل إلى هناك أملًا في أن يُريهم ما بإمكانه أن يفعل، فصدرت الأوامر لي بناءً على ذلك. انظر إلى النُّفوذ الذي لا بُدَّ أن ذلك الرَّجُل يملكه، أليس مُخيفًا؟». وافق الاثنان على أنه مُخيف، ثم أبديا بعض المُلاحظات الغريبة: «تمطر وتصحو، رجل واحد، المجلس، من أنفه»، شذرات من عبارات لا معنى لها أذهبت عنِّي نُعاسي بحيث كُنتُ أقرب إلى وعيي الكامل عندما سمعتُ العَمَّ يقول: «ربما يتكفَّل الطَّقس بدلًا منك بهذه الصُّعوبة. أهو وحده هناك؟»، أجاب المُدير: «نعم. لقد أرسل مُساعده لي من أعلى النَّهر حاملًا عبارة (أبعد هذا الشَّيطان النَّعِس عن البلاد ولا تُزعج نفسك بإرسال مزيدٍ من هذا النَّوع، إنني أُفضِّل أن أكون وحيدًا على أن يكون معي رجال تستطيع التَّخلُّص منهم)».

«كان ذلك منذ أكثر من عام، أتتصوَّر مثل تلك الوقاحة؟».

«أيُّ شيء منذ ذلك الوقت؟»، سأل الآخر بخشونة.. «عاج»، أجاب ابن الأخ بتشنُّج: «كثير منه، نوع ممتاز، كمِّيات كبيرة، وما هو أكثر إزعاجًا أنه منه».. «وماذا أيضًا؟»، سأله الآخر مُدمدمًا.. «فاتورة»، جاءت الإجابة مثل طلقة مُدوِّية، ثم أعقب ذلك صمت. كان الاثنان يتحدَّثان عن كورتز.

كُنتُ عندئذٍ في كامل وعيي أستلقي بارتياح، ولم أجد داعيًا لتغيير وضعي فبقيتُ ساكنًا... «كيف وصل العاج طوال كل هذا الطَّريق؟» زمجر الكبير وقد بدا مُحتدًّا، فقال الآخر إنه وصل بواسطة أُسطول من قوارب الكانو النَّهريَّة تحت إمرة مُوَظَّف إنجليزي مُولَّد كان مع كورتز، وإن من الواضح أن كورتز كان قد نوى العودة؛ إذ كانت المحطَّة في ذلك الوقت خالية من البضائع والمخزون، ولكنه قرَّر فجأةً بعد مسيرة ثلاثمائة ميل أن يرجع، وهو ما بدأه على الفور وحيدًا على ظهر قارب بدائي صغير مع أربعة مُجدِّفين تاركًا المُولَّد يتابع إلى أسفل النَّهر ومعه العاج. بدا الرَّجلان ذاهلين من أيِّ شخص يُحاول القيام بمثل هذا العمل، وبقيا حائرين يبحثان عن دافع قوي لذلك. أمَّا أنا فقد بدا لي كورتز للمَرَّة الأُولى. كانت تلك لمحة قاطعة الوضوح: القارب البدائي وأربعة مُجدِّفين مُتوحِّشين والأبيض المُتفرِّد يُولي ظهره فجأةً للمركز وللرَّاحة، وربما للأفكار عن الوطن، مُتَّجِهًا صوب أعماق البَرِّيَّة، صوب محطَّته الخالية المهجورة. لم أدرِ ما الدَّافع. ربما كان مُجَرَّد شخص رائع التصق بعمله لأجل العمل بذاته. لم يكُن اسمه- كما ترون- قد ذُكر مرَّةً واحدةً. لم يكُن غير (ذلك الرَّجُل) أمَّا المُولَّد الذي رأيت أنه أنهى رحلة صعبة جدًّا بمهارة وشجاعة

عظيمتين فقد كان يُشار إليه (بذلك الوغد). كان (الوغد) قد أبلغ بأن (الرَّجُل) كان مريضًا للغاية، وبأنه لم يشف تمامًا، وتقدَّم الرَّجُلان اللَّذان كانا أسفل زورقي بضع خطوات وبدآ يتمشَّيان جيئةً وذهابًا لمسافة قصيرة. وسمعت: «الموقع العسكريَّ.. الطَّبيب.. مئتا ميل.. وحيد تمامًا الآن.. تأخير اضطراري.. تسعة أشهر ولا أخبار.. شائعات غريبة»، وتقدَّما مرَّةً أُخرى عندما بدأ المُدير قوله: «لا أحد بحسب علمي، سوى تاجر جوَّال، شخصية مُدمِّرة ينتزع العاج من الأهالي»، تُرى من الذي يتحدَّثان عنه الآن؟ واستطعت أن أفهم من شذرات الكلام أنه لا بُدَّ رجل من منطقة كورتز لم يتقبَّله المُدير... «لن نتخلَّص من المُنافسة غير الشَّريفة إلا عندما يُشنق أحد هؤلاء الرِّجال ليكون عبرةً للآخرين»، قال: «بالتَّأكيد» نخر الآخر.. «شنقه ولِمَ لا؟ يمكن فعل أيِّ شيء في هذه البلاد. أيُّ شيء. وهذا ما أقوله.. لا أحد هنا، أتفهم؟ هنا، يُهدِّد مركزك، ولماذا؟ إنك تحمل المناخ، إنك تتجاوزهم جميعًا. إن الخطر في أوروبا، ولكن قبل أن أحضر حرصت على....». تحرَّك الاثنان وتهامسا، ثم ارتفع صوتهما مرَّةً أُخرى: «لم تكُن هذه السِّلسلة من التَّأخيرات غير العادية خطئي. لقد بذلتُ جُهدي». وتنهَّد الرَّجُل البدين: «إنه لمُحزن...»... «والسَّخف الخبيث في كلامه.. أكمل الآخر.. لقد أزعجني كثيرًا عندما كان هنا.. يجب أن تكون كل محطَّة منارة في الطَّريق إلى الأفضل، مركز تجاري بالطَّبع، ولكنه مركز للمُؤانسة والإصلاح والتَّوجيه، تأمَّل ذلك البغل؟ ويُريد أن يكون مُديرًا.. كلَّا، إنه....». واختنق بسخط مُتزايد، ورفعت أنا رأسي قليلًا ففُوجئتُ بمدى قُربهما منِّي. كانا تحتي مُباشرةً، حيث كان بإمكاني أن أبصق على قُبَّعتيهما. كانا ينظران إلى الأرض، تشغلهما الأفكار. كان المُدير يضرب قدمه بغُصن

نحيل عندما رفع قريبه الذَّكي رأسه وسأله: «ما زلت بخير منذ جئت هذه المرَّة؟» وأجفل الآخر: «من؟ أنا؟ كان ذلك مثل السِّحر... مثل السِّحر، أمَّا الآخرون.. يا إلهى.. كلهم مرضى، وهم يموتون بسُرعة أيضًا لدرجة أنه لا يبقى عندي ما يكفي من وقت لإرسالهم خارج البلد.. إنه فظيع»... «هكذا إذن»، زمجر العَمُّ: «ثق بهذا يا صغيري، أقول ثق بهذا». رأيته يمدُّ ذراعه القصيرة بإيماءة شملت الغابة والجدول والطِّين والنَّهر، وبدت وكأنها بإيماءتها الدَّنيئة أمام وجه اليابس المُضاء بنور الشَّمس، تغوي بدعوة غادرة إلى الموت المُتربِّص، إلى الشَّرِّ الكامن، إلى ظُلمة قلبها العميقة. كان ذلك مُفاجئًا لدرجة أنني قفزتُ واقفًا على قدميَّ أنظر إلى طرف الغابة كما لو كُنتُ أتوقَّع إجابة من نوع ما على استعراض الثِّقة الأسود هذا. تعرفون الأفكار الحمقاء التي تُراودنا أحيانًا. لقد واجه السُّكون المُطبق هذين الشَّبحين بصبره المشؤوم مُنتظرًا زوال غزو خيالي.

جدَّف الاثنان معًا، وشتما -بدافع الخوف المُجَرَّد على حسب ما أعتقد- ثم استدارا صوب المحطَّة مُتظاهرين بأنهما لا يعلمان بوجودي. كانت الشَّمس تتَّجه إلى المغيب، وبدا الاثنان وهما ينحنيان إلى الأمام جنبًا إلى جنب وكأنهما يجُرَّان ظلَّيهما المُضحكين غير مُتساويين في الطُّول إلى أعلى التَّلِّ، بينما تجرجر الظِّلَّان خلفهما ببُطءٍ على الأعشاب الطَّويلة دون أن يثنيا ورقة منها.

خلال بضعة أيَّام كانت «بعثة إلدورادو» قد رحلت إلى البَرِّيَّة الصَّبور التي احتوتها كما يحتوي البحر الغوَّاص، وبعدها بوقت طويل جاءت الأخبار بموت الحمير، ولم أعرف شيئًا عن مصير الحيوانات الأقل قيمةً، لا بُدَّ أنها مثلنا

جميعًا لقيت ما تستحقُّ. لم أسأل. كُنتُ في هذا الوقت مُستثارًا حول إمكانيَّة مُقابلتي القريبة لكورتز، وعندما أقول قريبة فإنني أقصد بذلك بشكل نسبي، وبعد شهرين تمامًا من اليوم الذي تركنا فيه الجدول وصلنا إلى البُقعة الخالية تحت محطَّة كورتز.

كان الصُّعود إلى أعلى النَّهر يُشبه الرُّجوع إلى بدايات العالم الأُولى عندما عربدت تيهًا الخُضرة على الأرض وتُوِّجت الأشجار الكبيرة ملكات. جدول جاف، وسكون عظيم، وغابة لا يمكن اختراقها. كان الهواء حارًّا، كثيفًا، ثقيلًا وبليدًا، ولم يكُن هناك بهجة في أَلَقِ الشَّمس. وكانت امتدادات الممرِّ المائي البعيدة تجري مهجورةً صوب قتامة المسافات المُعتمة. وعلى الضِّفاف الرَّمليَّة الفضِّيَّة كانت أفراس النَّهر والتَّماسيح تتشمَّس جنبًا إلى جنب، والمياه الآخذة بالامتداد عرضًا تتدفَّق عبر جمع من الجُزُر الشَّجريَّة، يضلُّ المرء طريقه في ذلك النَّهر كما في الصَّحراء فيخوض المخاضات الضَّحلة طوال النَّهار مُحاولًا إيجاد منفذ إلى أن يظن أنه قد سُحر وانقطع عن كُلِّ شيءٍ عرفه ذات مرَّة -في مكان ما- بعيدًا، ربما في وجود آخر. هناك لحظات يرجع فيها الماضي إليك كما يحدث أحيانًا عندما لا تكون لديك لحظة تُبقيها لنفسك، لكنها تأتي في صورة حلم مُزعج مُقلق يُذكر بحيرة بين الحقائق الغامرة لهذا العالم الغريب من النَّبات والماء والسُّكون. إن سُكون الحياة هذا لا يشبه الهدوء في شيء. لقد كان سُكون القُوَّة العنيد المُخيِّم فوق نية مُبهمة. كان ينظر إليك بحقد. لقد تعوَّدت على ذلك فيما بعد. لم أَرَهُ بعد ذلك. لم يكُن لديَّ وقت؛ فقد كان عليَّ الاستمرار في مُحاولة اكتشاف المنفذ. كان عليَّ أن أُخَمِّن موقع ضفَّة النَّهر، وكان عليَّ أن أُميِّز بالإيحاء غالبًا علامات الضَّفَّة

المُخفيَّة، وأُحاذر الحجارة الغارقة. كُنتُ أتعلَّم كيف أضغط على أسناني بشدَّة قبل أن يقفز قلبي خارجًا عندما مَسَستُ بالصُّدفة جذع شجرة قديمًا شيطانيًّا خبيث كان بإمكانه انتزاع الحياة من ذلك الزَّورق المُغلَّف بالمعدن وإغراق المُهاجرين جميعًا. كان عليَّ مُراقبة علامات الشَّجر الميِّت لنقطعه ليلًا تمهيدًا لمسيرة اليوم التَّالي. عندما يكون عليك أن تنتبه إلى أشياء مثل هذه، إلى الحوادث السَّطحيَّة، فإن الحقيقة -أقول لكم الحقيقة- تتلاشى. أمَّا الحقيقة الدَّاخليَّة فهي كامنة لحُسن الحظِّ.. لحُسن الحظِّ، لكنني أحسستُ بها هي أيضًا، وطالما شعرتُ بسكونها الغامض يُراقبني وأنا أُمارس حِيَلي الشَّبيهة بالقُرود، كما أنه يُراقبكم أيُّها الأصدقاء وأنتم تُؤدُّون عرضًا على حبال مشدودة خاصَّة بكم. مُقابل ماذا؟ نصف كراون للقفزة.

«حَاوِلْ أن تكون مُهذَّبًا يا مارلو»، زمجر صوتٌ، فعرفتُ أن هناك مُستمعًا واحدًا مُستيقظًا غيري على الأقل.

معذرةً، فقد نسيتُ ألم قلبي الذي يُشكِّل ما تبقَّى من الثَّمن، وما الذي ينفعه الثَّمن عندما تُتقن عملك؟ كلكم تُتقنون أعمالكم، لم يكُن سيئًا أن تدبَّرت أمر الحفاظ على الزَّورق من الغرق في رحلتي الأُولى، لكنَّ ذلك كان مُحيِّرًا بالنِّسبة لي. تخيَّلوا رجلًا معصوب العينين تُوكل إليه قيادة عربة في طريق سيِّئ. وأصدقكم القول بأنني كثيرًا ما تعرَّقت وارتعشت بسبب هذا العمل، فأن يكشط بحَّار قاع شيء يُفترض أن يُحافظ عليه طافيًا على الدَّوام خطيئةٌ لا تُغتفر. ربما لا يعلم بأمر ذلك أحد، ولكن هل ينسى أحد صوت الارتطام، هه؟ ضربة في صميم القلب، تتذكَّرها، تحلم بها، تستيقظ ليلًا وتُفكِّر

بها، ربما بعد سنوات، وتشعر بالحرارة والبرودة تلفُّ جسمك. إنني لا أزعم أن ذلك الزَّورق ظلَّ طافيًا دائمًا، فلقد خاض في الماء الضَّحل أكثر من مرَّة لمُدد قصيرة، حيث كان عشرون من المُتوحِّشين يتحلَّقون ليدفعوه، فينثرون الرَّذاذ في الجوار. كُنَّا قد سجَّلنا بعض هؤلاء في قائمة البحَّارة. هؤلاء المُتوحِّشون رائعون في مكانهم. كانوا رجالًا يمكن العمل معهم، وإنني أشكرهم، فهم لم يأكل بعضهم بعضًا أمامي؛ إذ كانوا قد أحضروا معهم مؤونة من لحم فرس النَّهر ما لبث أن تعفَّن صانعًا غموضَ البرِّيَّة ينتهي هو الآخر في خياشيمي، وإنني أستطيع أن أستنشقه الآن. كان معي على ظهر الزَّورق، المُدير وثلاثة أو أربعة من المُهاجرين مع مرؤوسيهم جاهزين جميعًا. كُنَّا نمُرُّ أحيانًا بمحطَّة قريبة من الضَّفَّة مُتَّصلة بضواحي المجهول، وكان الرِّجال البيض يُهرعون من كوخ مُحطَّم ويُومِئون بفرحة عظيمة ودهشة وترحاب، فيبدون غُرباء -كما لو أنهم مأسورون هناك بفعل سحر ما- ودوَّت كلمة (عاج) في الهواء لفترة، لكننا مضينا مرَّةً أُخرى نحو الصَّمت مع النِّهايات الفارغة وحول المُنحنيات السَّاكنة وبين الجدران العالية لطريقنا المُتعرِّج مع رجع صدى القعقعة الخاوية لضربات العجلة الرَّتيبة. أشجار، أشجار، ملايين الأشجار، كثيفة، ضخمة، تشقُّ عنان السَّماء، وعند أقدامها زحف الزَّورق الصَّغير المُتَّسخ مُحاذيًا الضَّفَّة، ومُعاكسًا التَّيَّار مثل خنفساء بليدة تزحف فوق أرضيَّة رواق شامخ. إن هذا يجعلك تشعر بالتَّضاؤل، بالضَّياع، لكن ذلك الشُّعور بأكمله لم يكُن مُقبضًا، فالخنفساء المُتَّسخة تزحف رغم التَّضاؤل، وهذا عين ما تُريدها أن تفعله. أمَّا الى أين تخيَّلها المُهاجرون زاحفةً فلا أدري، بالتَّأكيد نحو مكان يتوقَّعون أن يحصلوا منه على شيء، أمَّا بالنِّسبة لي فقد كانت تزحف نحو كورتز بالتَّحديد،

ولكن عندما بدأت أنابيب البخار بالتَّسريب أخذنا نزحف ببُطءٍ. كانت المسافات المنظورة من النَّهر تنفتح أمامنا وتغلق خلفنا كما لو أن الغابة قد عبرت الماء على مهل لتقطع علينا طريق العودة. توغَّلنا عميقًا عميقًا في قلب الظَّلام. كان السُّكون مُطبقًا هناك، وفي بعض الأحيان كانت دقَّات الطُّبول خلف السِّتارة الشَّجريَّة تصعد مع النَّهر ليلًا، وتبقى خافتةً هناك، كأنها تحوم عاليًا فوق رُؤوسنا حتى انبلاج الفجر، ولم نكُن ندري إذا كان ما تعنيه حربًا أم سلمًا أم صلاةً. كان البشير ببزوغ الفجر حلول سُكون بارد، ويكون قاطعو الأخشاب قد ناموا وخبت نيرانهم، ويجفلك صوت فرقعة غصن صغير ينكسر. كُنَّا تائهي ما قبل التَّاريخ فوق أرض لبست لباس كوكب مجهول، وكان في استطاعتنا تخيُّل أنفسنا مثل أوائل الرِّجال الذين استولوا على ميراث ملعون، فأُجبروا على دفع الثَّمن ألمًا مُضنيًا وكدًّا مُنهكًا، ولكن فجأةً وبينما نحن نحاول جاهدين الدَّوران مع أحد المُنحنيات لمحنا جدارًا من جذور وأسطح عُشبيَّة مُدبَّبة، وانفجرت صرخات واندفعت أطراف سوداء. طوفان من الأكُفِّ المُصفِّقة، والأقدام الخابطة، والأجسام المُتمايلة، والأعيُن الدَّائرة في الحدقات تحت أوراق الشَّجر الثَّقيلة المُتهدِّلة بسكون. سار الزَّورق بصعوبةٍ وبُطءٍ على حافَّة جنون أسود لا يُدرك. كان رجل ما قبل التَّاريخ يلعننا، أو يُصلِّي لنا، أو يُرحِّب بنا، من يدري؟ كان هناك حاجز يحول دون أن نستوعب ما يُحيط بنا، فانسللنا مثل الأشباح مذهولين نرتعد سرًّا مثل رجال عُقلاء أمام انفجار صاخب في بيت للمجانين. لم نستطع أن نتذكَّر لأننا كُنَّا نُسافر في ليل العصور الأُولى، تلك العصور التي ولَّت، وبالكاد تركت علامةً، ولا ذكريات.

بَدَت الأرضُ غيرَ الأرض، إن من عادتنا النَّظر إلى شكلٍ مُكبَّلٍ لوحشٍ مهزومٍ، ولكن هناك.. هناك كان في إمكانك النَّظر إلى شيء وحشي وطليق. لم يكُن ذلك أرضيًّا، ولم يكُن الرِّجال؛ كلَّا، لم يكونوا غير إنسانيين. حسنًا، أتعلمون، كان ذلك هو الأسوا. ذلك الشَّكُّ بعدم كونهم لا إنسانيين، إنه يأتينا ببُطءٍ. زمجر الرِّجال وقفزوا وداروا حول أنفسهم وأبدوا وجوهًا مُرعبة، لكن ما يجعلك ترتعد حقًّا هو فكرة إنسانيَّتهم -مثل إنسانيَّتكم- فكرة صلتنا البعيدة بهذا الصَّخب الوحشي المُتَّقد، بشع، نعم كان بشعًا جدًّا، ولكن لو كان لدينا ما يكفي من الرُّجولة لاعترفنا لأنفسنا بأن فينا أثرًا قليلًا من الاستجابة للصَّراحة المُرعبة لهذا الضَّجيج، شكًّا خافتًا بوجود معنى فيه يمكنكم أنتم.. أنتم البعيدون عن ليل العصور الأُولى أن تستوعبوه، ولِمَ لا؟ ذلك العقل البشري.. إنه قادر على كُلِّ شيءٍ؛ لأن فيه كل شيء. كل الماضي، وكل المُستقبل وماذا بعد كان هناك؟ فرح، خوف، عبادة، شجاعة، غضب. من يدري؟ سوى الحقيقة... الحقيقة مُجَرَّدة من رداء الزَّمَن. اترك الحمقى يفغرون أفواههم ويرتعشون.. أمَّا الرَّجُل فيعرف، وإن كان في استطاعته النَّظر من دون أن تطرف له عين، ولكن يجب أن يكون لديه من الرُّجولة ما لهؤلاء الموجودين على الشَّاطئ على الأقل. يجب أن يُواجه تلك الحقيقة بقُدراته الخاصَّة الحقيقيَّة. بقُوَّته الخاصَّة الكامنة فيه. لن تنفع المبادئ ولا المُكتسبات ولا الملابس أو الخرق الجميلة... الخرق التي تسقط مع أوَّل هزَّة حقيقيَّة. كلَّا، إنك في حاجة إلى إيمان مُتمهِّل. أهناك من دعاني إلى تلك المعركة الوحشيَّة؟ حسنًا جدًّا، إنني أستمع، أعترف، لكنَّ لي صوتًا أيضًا، وسواء كان مع الخير أو مع الشَّرِّ فإن حديثي لا يمكن إسكاته، والأحمق فقط هو الآمن

دائمًا، سواء بفعل الرُّعب، أو بفعل المشاعر الرَّقيقة. من هذا الذي يخور؟ ربما تتساءلون لِمَ لَمْ أهبط إلى الشَّاطئ لأُشارك في الصُّراخ والرَّقص. حسنًا، لا.. لم أفعل. تقولون مشاعر رقيقة؟ أن تشنق، مشاعر رقيقة! لم يكُن لديَّ الوقت. كان عليَّ أن أتدبَّر أمر استخدام الرَّصاص الأبيض ولفافات من قطع الأغطية الصُّوفيَّة للمُساعدة في مُعالجة تسريب أنابيب البُخار. كان عليَّ أن أُراقب عمليَّة القيادة، وأن أتجاوز تلك المُعوِّقات، وأن أُواصل تسيير ذلك الشَّيء الصَّفيحي بطريقة أو بأُخرى. كان هناك من الحقيقة الطَّافية على سطح تلك الأشياء ما يكفي لإنقاذ رجل أكثر حكمةً، وبين وقت وآخر كان عليَّ الاعتناء بالمُتوحِّش الذي كان وقَّادًا، كان عيِّنةً مُحسَّنةً باستطاعته أن يملأ مرجلًا عموديًّا بالوقود. كان هناك إلى الأسفل منِّي. وأقسم أن النَّظر إليه كان في روعة النَّظر إلى كلب يلبس سروالًا وقُبَّعة من الرِّيش يسير على قدميه الخلفيتين. لقد أثمر التَّدريب لبضعة شهور في ذلك الشَّخص الرَّائع حقًّا. كان يُحدِّق بأداة عيار البُخار والماء في مُحاولة واضحة للتَّشجع. ذلك الشَّيطان المسكين بأسنانه الرَّتيبة، وبصوف رأسه المقصوص أشكالًا غريبةً، وهذه النُّدوب التَّزيينيَّة الثَّلاثة على كل من خدَّيه. كان من المفروض أن يكون هناك على ضفَّة النَّهر يُصفِّق بيديه، ويضرب الأرض بقدميه، بدلًا من أن يكون في خِضَمِّ هذا العمل الشَّاقِّ، عبدًا لنوع غريب من السِّحر مليء بالمعرفة المُتطوِّرة. كان مُفيدًا بالنِّسبة لنا لأنه تعلَّم.. تعلَّم أنه إذا انتهى الماء من ذلك الشَّيء الشَّفَّاف فإن الأرواح الشِّرِّيرة داخل ذلك المرجل ستثور من خلال ظمئها العظيم، وتنتقم انتقامًا رهيبًا؛ لذا فقد كان يتعرَّق ويُزوِّد بالوقود ويُراقب الزُّجاج برُعب (بتعويذة ارتجاليَّة مُكوَّنة من بعض الخِرَق المربوطة

إلى ذراعه وقطعة من العظم اللَّامع بحجم ساعة اليد يغرسها مُنبسطةً داخل شفته السُّفلى) في حين انسابت الضِّفاف الشَّجريَّة من حولنا ببُطءٍ. تركنا الضَّجَّة الخافتة خلفنا. أميال من الصَّمت الذي لا ينتهي، وواصلنا زحفنا نحو كورتز، لكنَّ الجذور المُعترضة كانت كثيفةً، والماء خادعًا ضحلًا، وبدا المرجل وكأن فيه شيطانًا تعِسًا حقًّا، وهكذا لم يكُن لديَّ أو لدى ذلك الوقَّاد وقت للنَّظر إلى أفكارنا.

على بُعد نحو خمسين ميلًا إلى أسفل المحطَّة الدَّاخليَّة، مررنا بكوخٍ من القصب وسارية حزينة مُنكَّسة طارت منها مزق لا تكاد تُميَّز لما كان يومًا علمًا، وكومة أخشاب كُدِّست بعنايةٍ. كان ذلك شيئًا غير مُتوقَّعٍ. نزلنا إلى الضَّفَّة، وعلى كومة الحطب وجدنا قطعة مُسطَّحة من لوح عليها أثر باهت لكتابة بالقلم الرَّصاص. وعند الانتهاء من فكِّ رموزها كانت (خشب لكم، أسرعوا، اقتربوا بحذرٍ)، وكان هناك توقيع، لكنه لم يكُن مقروءًا -ليس لكورتز- كانت كلمة أطول بكثير (أسرعوا) إلى أين؟ إلى أعلى النَّهر؟ (اقتربوا بحذرٍ)، لم نكن قد فعلنا ذلك، ولكن لا يمكن أن يكون المقصود بالتَّحذير هو هذا المكان الذي لا يمكن العثور عليه إلا بعد الاقتراب منه. كان هناك شيء خاطئ هناك في أعلى النَّهر -ولكن ما هو؟- ما مقداره؟ هذا هو السُّؤال. تعارضت تعليقاتنا حول غباء أسلوب البرقيَّات هذا، ولم تُوحِ لنا الغابة المُحيطة بنا بشيء، ولا مكَّنتنا من رؤية ما هو أبعد. كانت ستارة مُمزَّقة مصنوعة من نسيج مُضلَّع أحمر تتدلَّى من باب الكوخ بحُزنٍ أمام أنظارنا. كان المسكن خاليًا، ولكن كان في استطاعتنا استنتاج أن رجلًا أبيضَ كان قد عاش هناك منذ زمن غير بعيد، فقد كانت هناك طاولة بدائيَّة.. لوح من الخشب فوق عمودين،

وتكوَّمت كومة من الفضلات في زاوية مُظلمة، ومن عند الباب التقطت كتابًا سقط غلافه، أمَّا صفحاته فقد بليت حتى أصبحت على درجة كبيرة من اللِّين القذر، إلا أن مُؤخِّرته كانت مخيطة حديثًا بصورة جميلة بخيط قُطني أبيضَ بدا نظيفًا حتى تلك اللَّحظة. كانت تلك لُقيةً غريبةً. وقد حمل الكتاب عنوان «بحث حول بعض نقاط الملاحة» للمُؤلِّف تاوسر أوتاوسون -أو اسم من هذا القبيل- قُبطان في بحريَّة صاحب الجلالة. بَدَت مادَّة الكتاب كئيبةً جافَّةً تحوي بعض الرُّسومات التَّوضيحيَّة وجداول كريهة بأرقام. كان تاريخ الكتاب يرجع إلى ستِّين سنة خَلَت. أمسكتُ بتلك التُّحفة الأثريَّة العجيبة بما أمكنني من الرِّقَّة حتى لا تذوب في يدي. في ثناياه كان تاوسر أوتاوسون يدرس بحماس أقصى مدى لجذب السَّلاسل والبكرات فوق السَّفينة وقضايا مُشابهة. لم يكُن الكتاب رائعًا، ولكن كان مُوحَّدَ الهدف، وذلك الاهتمام الكبير بطريقة العمل أوَّل ما تقع عليه النَّظرة الأُولى للكتاب، وهذا ما جعل تلك الصَّفحات التي وُضعت منذ ذلك الزَّمَن تُضيء بإشعاع يُضاف إلى الحِرَفيَّة التي تبدَّت فيها. لقد جعلني ذلك البحَّار القديم البسيط بحديثه عن السَّلاسل والمُشتريات أنسى الغابة والمُهاجرين في غمرة شعور لذيذ بإيجاد شيء لا شكَّ في حقيقته. كان وجود مثل هذا الكتاب شيئًا رائعًا، غير أن المُلاحظات التي كُتبت بالقلم الرَّصاص على الهامش تُشير بوضوح إلى النَّصِّ كانت أعظم وأدعى للدَّهشة. لم أكُن لأُصدِّق عيني، فقد كانت مكتوبة بالشَّفرة. نعم، لقد بَدَت كذلك. تصوَّروا رجلًا يحمل معه كتابًا من هذا النَّوع إلى تلك البُقعة المجهولة ليدرسه؛ وليُدوِّن عليه المُلاحظات، وبالشَّفرة أيضًا. كان ذلك أقصى درجات الغموض.

لبعض الوقت، خالجني إدراك غامض بضجَّةٍ مُزعجةٍ، وعندما رفعت عيني وجدتُ أن كومة الخشب قد اختفت، وكان المُدير ومن حوله جميع المُهاجرين يصرخون عليَّ من ضفَّة النَّهر. أدخلتُ الكتاب في جيبي، وأُؤكِّد لكم أن انتزاعي من القراءة كان أشبه بانتزاعي من حمى صداقة قديمة متينة.

شغَّلتُ المُحرِّك الواهن إلى الأمام... «لا بُدَّ أنه ذلك التَّاجر التَّعِس.. ذلك المُتطفِّل»، قال المُدير وهو ينظر إلى الخلف، حيث المكان الذي تركناه.. «لا بُدَّ أنه إنجليزي»، قُلتُ، فتمتم المُدير بغموض: «هذا لن يُنقذه من المتاعب إذا لم يكُن حَذِرًا»، ولاحظتُ ببراءةٍ مُفترضةٍ أن أحدًا ليس في مأمن من المتاعب في هذا العالم.

أصبح التَّيَّار أسرَعَ، وبدا الزَّورق كأنه في الرَّمق الأخير، وأخذت العجلة المُتيبِّسة تتخبَّط بضعفٍ، ووجدتُ نفسي في حالة إنصات لضربة الزَّورق التَّالية، ففي كل لحظة كُنتُ أتوقَّع أن يتوقَّف ذلك الشَّيء البائس. وكان ذلك يُشبه ترقُّب آخر مظاهر الحياة، لكننا مضينا زاحفين. في بعض الأحيان كان اختياري يقع على شجرة إلى الأمام مِنَّا قليلًا لأحسب بها تقدُّمنا نحو كورتز، لكنني كُنتُ أفقدها قبل أن نتقدَّم، فالنَّظر باستمرار إلى شيء واحد كان أكثر من أن تحتمله طاقة البشر. أظهر المُدير استسلامًا رائعًا، أمَّا أنا فقد ثُرتُ واستشطتُ غضبًا وأخذتُ أُجادل نفسي حول تحدُّثي أو عدم تحدُّثي بانفتاح مع كورتز، ولكن قبل أن أصل إلى أيِّ نتيجة خطر لي أن حديثي أو صمتي أو أيَّ عمل آخرَ أقوم به ما هو إلا عبث مُطبق، فما الذي تعنيه معرفة شخص بشيءٍ ما أو جهله به؟ وماذا يهم من أمر كون المُدير هذا الشَّخص أو ذاك؟ إن

الشَّخص ليمتلك أحيانًا ومضًا من نفاذ البصيرة. أمَّا الجوهري في هذا الأمر فكان هناك عميقًا تحت السَّطح، بعيدًا عن متناول يدي، وبعيدًا عن فاعليَّة تدخُّلي.

عند مساء اليوم التَّالي قدَّرنا أننا على بُعد نحو ثمانية أميال من محطَّة كورتز، وكُنتُ أرغبُ في مواصلة السَّير، لكن المُدير الذي بدا مُرهقًا أخبرني أن الإبحار إلى هناك على درجة من الخطورة، حيث إن من الأفضل، والشَّمس قد أوشكت على المغيب، أن ننتظر حيث نحن حتى صباح اليوم التَّالي. كما أشار إلى أنه في حالة وضع الإنذار بالاقتراب بحذر موضع التَّنفيذ، فإن من الواجب الاقتراب في وضح النَّهار -لا في الغسق ولا في الظَّلام- وكان في ذلك كفايةً من التَّعقُّل. كانت ثمانية أميال تعني بالنِّسبة لنا إبحار ثلاث ساعات، وكُنتُ أرى في الوقت نفسه تموُّجات مُريبة في الطَّرف العُلويِّ من امتداد النَّهر. وعلى الرغم من ذلك فقد كان انزعاجي بسبب التَّأخير لا يُوصف، وقد كان هذا غريبًا؛ إذ ما قيمة تأخير ليلة بعد كل هذه الشُّهور. كان لدينا كثير من الخشب، وكان رائدنا الحذر؛ لذا أوقفتُ الزَّورق في منتصف المجرى المائي. كان امتداد النَّهر ضيِّقًا ومُستقيمًا له حوافُّ عالية مثل ممرِّ السِّكك الحديديَّة المقطوع من الصَّخر. حل الغسق قبل مغيب الشَّمس بوقت طويل، وانطلق التَّيَّار بسُرعة هادئة، وساد سُكون أخرس فوق الضِّفاف. الشَّجر الحي الذي مسحت المتسلقات والشُّجيرات الصَّغيرة أذيالها به تحوَّل إلى حجارة حتى أصغر غُصن وأخف ورقة منه، لم يكُن هذا نومًا، كان شيئًا غير عادي كأنه الغيبوبة. لم نسمع أيَّ صوت. وكان أحدنا ينظر بحِيرةٍ، ثم يبدأ في الارتياب بكونه أصمَّ، ثم جاء اللَّيل فجأةً فأغشى أبصارنا أيضًا. عند السَّاعة

الثَّالثة صباحًا قفزت سمكة كبيرة من الماء، وقد جعلني صوت الرَّذاذ أقفز كما لو أن قذيفة قد أُطلقت. وعندما أشرقت الشَّمس كان قد حلَّ ضباب أبيض دافئ نديٌّ أكثر حجبًا للرُّؤية من اللَّيل. لم يتحوَّل، ولم ينقشع، ظلَّ يُحيط بنا كما لو كان شيئًا صُلبًا. وفي السَّاعة الثَّامنة أو ربما في التَّاسعة ارتفع كما ترتفع مصاريع النَّوافذ. وبدت لنا جموع الأشجار الشَّاهقة والدَّغل الهائل وقد حلَّقت فوقها كُرة الشَّمس المُلتهبة. كان كُلُّ شيءٍ في حالة سُكون تام، ثم أسدلت المصاريع البيضاء ثانيةً برفق كما لو أنها انزلقت في أخاديد مُشحَّمة، فأمرت بإرخاء السِّلسلة ثانيةً بعد أن كُنَّا قد بدأنا في رفعها. وقبل أن تتوقَّف عن الجريان بخشخشتها المكتومة، دوَّت في الهواء القاتم صرخة هائلة كأنها صرخة خذلان مُطلق، ثم توقَّفت، وملأت أسماعنا جلبة شاكية تذبذبت مثل نشاز وحشي، وأحسستُ بشعري يتحرَّك تحت قُبَّعتي بفعل المفاجأة الكاملة. لا أدري كيف كان وقع ذلك على الآخرين، أمَّا أنا فبدا لي وكأن الصَّباب نفسه هو الذي صرخ، هكذا فجأةً، ومن جميع الاتِّجاهات في الوقت نفسه كما بدا، صعد هذا الصُّراخ الحزين الصَّاخب وانتهى إلى انفجار صاخب لزعيق هائل لا يُحتمل، توقَّف بعد قليل تاركًا إيَّانا جميعًا مُتيبِّسين في أوضاع سخيفة مُختلفة، نستمع بعناء إلى السُّكون المُذهل الذي لا يقلُّ ترويعًا.. «يا إلهي، يا إلهي! ما معنى....»، تمتم بجوار كُوْعِي حاجٌّ.. رجل ضئيل الحجم مائل إلى السِّمنة له شعر ذهبي وشارب أحمر، كان يرتدي حذاءً بلوالب جانبيَّة وبيجامة ورديَّة أدخل رجليها تحت جوربيه. ووقف اثنان آخران وقد فغرا فاهيهما دقيقة كاملة ثم هرعا إلى القمرة الصَّغيرة ليعودا ثانيةً ويقفان وهما يُرسلان نظرات مذعورة من أعيُنهما، وفي أيديهما بُندقيَّتا

ونتشستر في وضع تأهُّب. كان الزَّورق الذي نركبه هو كل ما نرى بحوافِّه التي غشيها الضَّباب كما لو أنه على حافَّة التَّفسُّخ، يُحيط به شريط ضبابي من الماء يبلغ عرضه نحو قدمين، وكان ذلك كل شيء. أمَّا باقي العالم فلم يكُن موجودًا بالنِّسبة لآذاننا وأعيُننا. لم يكُن موجودًا فحسب. ذهب، اختفى، مُحِيَ من دون أن يترك وراءه همسة أو ظلًّا.

تقدَّمتُ وأمرتُ بسحب السِّلسلة قليلًا استعدادًا لرفع المرساة والسَّير بالزَّورق فورًا إذا كان هذا ضروريًّا.. «هل سيُهاجمون؟»، همس صوت يملؤه الخوف.. «سنُذبح جميعًا في هذا الضَّباب»، تمتم آخرُ. ارتعشت الوجوه بالانفعال وانتفضت الأيدى قليلًا ونسيت الأعيُن أن تطرف. كان غريبًا أن ترى تناقض تعبيرات الرِّجال البيض والرِّفاق السُّود من بحَّارتنا، ممكن لم يكونوا أقل غُربةً مِنَّا في هذا الجزء من النَّهر، على الرغم أن أوطانهم لم تكُن تبعد أكثر من ثمانمائة ميل. كانت لدى البيض الذين لم يتمالكوا أنفسهم تلك النَّظرة الغريبة؛ لكونهم مصدومين بشكل مُؤلم بفعل ذلك الضَّجيج الصَّاخب، وكانت تبدو على الآخرين تعبيرات اليقظة المهتمة بطبيعتها، غير أن وجوههم كانت هادئة أساسًا، حتى ذلك الشَّخص أو الشَّخصان اللذان كانا يُكشِّران عن أسنانهما في أثناء سحب السِّلسلة. وتبادل كثيرون عبارات قصيرة مُبهمة بَدَت وكأنها أوصلتهم إلى تسوية أرضتهم. اقترب مِنِّي رئيسهم، وهو شابٌّ أسودُ، عريض الصَّدر، مُتلفِّح بقطع من القماش الأزرق الفاقع مُهدَّب الحوافِّ، له خياشيم وحشيَّة، أمَّا شعره فقد سُرِّحت ضفائره الزَّيتية إلى أعلى بطريقة فنيَّة، قُلتُ: «أها..»، فقط لمُجَرَّد الزَّمالة. فأجاب بحدَّة بعينين دمويتين مُتَّسعتين والتماعة من أسنانه الحادَّة: «اقبض عليهم، اقبض عليهم، وأعطهم

لنا»... «لكم، ها؟ وماذا ستفعلون بهم؟»... «نأكلهم»، أجاب باقتضاب وهو يتَّكئ كل قُواك للتَّغلُّب على الجوع. إن مواجهة الحرمان من عزيز، وفقد الشَّرف، وعذاب الرُّوح، أسهل من مُواجهة ذلك الجوع المُمتد. ذلك مُؤلم، لكنه حقيقي، وهؤلاء الرِّفاق أيضًا لم يكُن لديهم أيُّ سبب يُذكر للتَّردُّد. الكبح! كيف لي أن أتوقَّع أن يكبح نفسه ضبع يجوس بين جُثث مُلقاة في ميدان معركة بحثًا عن فريسة. لكن كانت هناك الحقيقة تُواجهني... الحقيقة المُغشية للبصر لدى رؤيتها، مثل الزَّبد في أعماق البحار، مثل تموُّجات لُغز مُبهم، غموض... عندما فكَّرت فيه... أعظم من ملحوظة حزن يائس غريبة عصيَّة على التَّفسير وسط ذلك الصَّخب الوحشي الذي خلَّفناه على ضفاف النَّهر وراء بياض الضَّباب المُغشي للبصر.

كان اثنان من المُهاجرين يتشاجران بهمس سريع حول أيِّ الضَّفَّتين.. «اليُسرى»... «كلَّا، كيف يُمكنك؟ اليُمنى... اليُمنى بالطَّبع»... «إنه لأمر خطير». جاءني صوت المُدير من الخلف.. «سأشعر بالخذلان إذا حدث شيء للسَّيِّد كورتز قبل أن نصل».. نظرتُ إليه ولم يكُن لديَّ شك حول جدِّيته. كان من النَّوع الذي يتمنَّى أن يكون باستطاعته الحفاظ على ملامحه. هكذا كان كبحه، ولكنه تمتم بشيءٍ عن الذِّهاب بسُرعة. لم أُكلِّف نفسي عناء الرَّدِّ. كُنتُ أعرف، وكان هو يعرف أيضًا أن ذلك مُستحيل، ولو أننا أرخينا قبضاتنا عن التَّحكُّم بقاع الزَّورق لأصبحنا في الهواء.. في الفراغ. لم يكُن بإمكاننا معرفة اتِّجاهنا.. إلى أعلى النَّهر أم إلى أسفله، أم بعرضه.. إلى أن يُلقى بنا إلى هذه الضَّفَّة، أو تلك، وعندها لن نعرف في البداية أيَّ ضفَّةٍ هي. لم أتحرَّك بالطَّبع. فلم تكُن لديَّ نيَّة في التَّسبُّب بتحطيم الزَّورق. قد لا تتخيَّلون أيَّ مكان مُميت

كان ذلك لتحطُّم سفينة، وسواء غرقنا فورًا أم لا فقد كُنَّا سنهلك سريعًا بطريقة أو بأُخرى... «إنني أُفوِّضك سُلطة اتِّخاذ أيِّ قرار بالمُخاطرة»، قال المُدير بعد فترة صمت قصيرة... «إنني أرفض اتِّخاذ أيٍّ منها»، أجبتُ باختصار، وهو الجواب الذي توقَّعه مع احتمال أن تكون لهجته قد فاجأته.. «حسنًا. إنني أنزل عند رغبتك فأنت الرُّبَّان»، قال بأدب واضح. كم من الزَّمَن سيستمر؟ كان ذلك هو الحذر اليائس بنفسه. كان الحذر يُحَدِّق بذلك التَّقدُّم نحو هذا الكورتز الباحث عن العاج بين الشُّجيرات البائسة، كما لو كان أميرة مسحورة تُقيم في قصر خيالي... «أتعتقد أنهم سيُهاجمون؟»، سأل المُدير بلهجة الواثق.

كان رأيي أنهم لن يُهاجموا لأسباب كثيرة واضحة. أحدها الضَّباب الكثيف، وكانوا سيضلُّون بالتَّأكيد لو أنهم حاولوا التَّوجُّه الينا من الضِّفاف بقوارب الكانو، وكُنَّا سنُواجه المصير نفسه عند أوَّل مُحاولة مِنَّا للتَّحرُّك، لكنني تأكَّدتُ أيضًا من استحالة اختراق الغابة، ولكن كانت فيها ثَمَّةَ أعيُن. أعيُن رأتنا. كانت الأشجار المُحيطة بالنَّهر كثيفة للغاية، لكن ما خلَّفها من شُجيرات أقل نموًا كانت قابلة للاختراق. وعلى أيِّ حال فإنني لم أَرَ خلال فترة انقشاع الضَّباب القصيرة أيَّ قارب على مرمى البصر، وبالتَّأكيد ليس أمام الزَّورق. غير أن ما جعل فكرة الهجوم احتمالًا بعيدًا هو طبيعة الضَّجَّة.. طبيعة الصَّرخات التي كُنَّا قد سمعناها، فهي لم تكُن تحمل طابع الوحشيَّة التي تُنذر بقصد عدائي. فهي بطبيعتها غير المُتوقَّعة، الوحشيَّة والعنيفة، أضفت عليَّ احساسًا جامحًا بالأسى. لقد ملأ منظر الزَّورق هؤلاء المُتوحِّشين حُزنًا لا يمكن السَّيطرة عليه، وأشرتُ إلى أن أيَّ خطر إذا كان هناك مثل هذا الخطر سيكون

بالضَّرورة راجعًا إلى اقترابنا من نوع من العاطفة الإنسانيَّة المُنطلقة من عقالها. وحتى الحُزن الأقصى يُمكن أن يتجسَّد في ضرب من العُنف، ولكنه على الأرجح يأخذ شكل اللا مُبالاة.

كم أَوَدُّ لو أنكم رأيتم المُهاجرين وهم يُحملقون! لم يكُن لديهم الحماس للسُّخرية مِنِّي أو لشتمي، لكني أعتقد أنهم اعتقدوا أنني جُننتُ.. ربما من الخوف. وبدأتُ في إلقاء مُحاضرة مُكرَّرة. أيُّها الأولاء الأعزَّاء، القلق لن يُفيدنا. أن نبقى مُتيقِّظين؟ حسنًا إذن، تعرفون أنني راقبتُ علامات انقشاع الضَّباب كما يُراقب القِطُّ فأرًا. فأعيُننا لم تعُد صالحةً لشيء بأكثر ممَّا دُفنت عيناه على عُمق أميال عديدة في كومة من القُطن. هكذا كان الشُّعور أيضًا.. بالاختناق والدِّفء والكبت. إلى ذلك، فقد كان كل ما قلته مُطابقًا للواقع بشكلٍ مُطلقٍ رغم أنه بدا مُبالغًا فيه بعض الشَّيء، فلم يكُن ما رأيناه هجومًا غير مُحاولة للرَّدِّ. كان عملًا أبعدَ من أن يكون عدوانيًّا.. لم يكُن دفاعيًّا بالمعنى المفهوم. لقد اتُّخذ تحت ضغط اليأس، وكان في جوهره عملًا وقائيًّا.

يُمكنني القول إن الأمر تطوَّر بعد ساعتين من انقشاع الضَّباب، وكانت بدايته عند نقطة تبعد ما يُوازى ميلًا ونصف الميل أسفل محطَّة كورتز. كُنَّا قد بدأنا نتعثَّر ونتخبَّط في أحد المُنعطفات عندما رأيتُ جزيرة صغيرة، تلَّة صغيرة يلمع عُشبها الأخضر الزَّاهي وسط النَّهر. كانت شيئًا لم نَرَ له مثيلًا. ولكن ما إن شققنا طريقنا في النَّهر حتى أحسستُ أن ذلك لم يكُن غير رأس تلَّة رمليَّة، أو بداية سلسلة من البُقع الضَّحلة الخالية المُمتدَّة إلى منتصف النَّهر. لم يكُن لها لون مُعيَّن، كانت مُجَرَّد جزء من اليابسة غسلته مياه النَّهر.

أمَّا الشَّيء كله فكان يبدو تحت الماء مثل عمود فقري لرجل يمتدُّ تحت الجلد في منتصف الظَّهر. ورأيتُ أن في استطاعتي الذِّهاب إلى يمين هذا الشَّيء، أو يساره. لم أعرف أيًّا من الممرَّين بالطَّبع، فقد بَدَت الضِّفاف مُتشابهةً جدًّا، وبدا عُمقهما مُتساويًا، ولكن لأنني كُنتُ قد أُبلغت أن المحطَّة كانت على الجانب الغربي، فإنني توجَّهتُ صوبه بالطَّبع.

ما إن دخلنا الممرَّ حتى أدركتُ أنه كان أضيقَ ممَّا افترضتُ بكثير إلى يسارنا، وكانت المخاضة الطَّويلة المتصلة، وإلى اليمين كانت الضَّفَّة المُرتفعة بانحناء تكتسي بالحشائش الكثيفة. فوق الحشائش انتصبت الأشجار مُتفاوتة الطُّول، وقد تدلَّت الأغصان فوق المجرى بكثافة. وبين حين وآخر كان هيكل شجرة ضخم يبرز صُلبًا فوق المجرى. كان كُلُّ شيءٍ إذن جيِّدًا بعد الظُّهر. كان وجه الغابة مُظلمًا، وسقط شريط عريض من الظِّلِّ فوق الماء. وداخل هذا الظِّلِّ أبحرنا صاعدين، ببُطءٍ شديد كما يمكنكم أن تتخيَّلوا. انحرفت في اتِّجاه الشَّاطئ؛ فبواسطة عمود سبر الغور علمتُ أن الماء القريب من الضَّفَّة هو الأعمق.

كان أحد أصدقائي الجائعين الصَّابرين يسبر غور المياه في الانحناءات تحتي مُباشرةً. كان ذلك الزَّورق أشبه بصندل ذي سقف، وعلى سطحه كان هناك بيتان صغيران من خشب السَّاج بنوافذهما وأبوابهما. كان المرجل في نهاية المُقدِّمة والمُحرِّك في المُؤَخِّرة، وفوق هذا كله كان هناك سقف خفيف قائم على بعض المساند، وقد برزت المدخنة من خلاله. وأمام هذه المدخنة كانت هناك قمرة صغيرة مصنوعة من ألواح الخشب الخفيفة هي حجرة

الرُّبَّان. كانت تحتوي على أريكة وكرسيين خفيفين وبُندقيَّة مارتيني هنري محشوة في إحدى الزَّوايا وطاولة صغيرة وعجلة القيادة. كان لها باب واسع في المُقدِّمة وأباجورات عريضة عند كل طرف، كلها مفتوحة دائمًا. وكُنتُ أقضي مُعظم نهاري فوق حافَّة المُقدِّمة من ذلك السَّقف أمام الباب. وفي اللَّيل كُنتُ أنام أو أُحاول النَّوم فوق الأريكة. كان أحد السُّود، وهو شخص رياضي البُنيان ينتمي لإحدى القبائل السَّاحليَّة تعلَّم على يد سلفي المسكين، هو الذي يُدير الدَّفَّة. كان يضع في أُذنيه زوجًا من الأقراط النُّحاسيَّة، وقد لفَّ حول جسده من الخصر حتى الكاحل إزارًا من القماش الأزرق مُعتقدًا أنه يملك العالم. لم أَرَ في حياتي من هو أكثر حُمقًا منه، ولم يكُن لغروره مثيل وهو يُدير الدَّفَّة عندما يكون أحد في الجوار. أمَّا إذا لم يَرَ أحدًا فإنه يتحوَّل على الفور إلى ضحيَّة لجُبن شائن، وفي لحظة واحدة يفلت زمام ذلك الزَّورق المُنهك من يده.

كُنتُ أنظر إلى عمود سبر الغور وأحسُّ بالقلق عندما أكتشفُ أن جزءًا منه يبرز أكثر مع كل مُحاولة. ورأيتُ الرَّجُل الذي كان يُمسك بالعمود يترك العمل فجأةً ويتمدَّد بطوله على ظهر السَّفينة دون أن يُكلِّف نفسه عناء سحب العمود رغم أنه ظلَّ مُمسكًا به، فبقي مُتدلِّيًا في الماء. وفي الوقت نفسه جلس الوقَّاد الذي كُنتُ أراه تحتي في صورة فُجائيَّة أمام فُرنه مُحنيًا رأسه. تولَّتني الدَّهشة. كان عليَّ عندها أن أنظر إلى النَّهر بسُرعة كبيرة فقد كان هناك جذع شجرةٍ يُعيق الملاحة في الجُزء السَّالك من النَّهر. كانت عصا صغيرة تتطاير من حولنا بغزارة. تئزُّ أمام أنفي وتسقط تحتي وترتطم خلفي بغُرفة قائد الدَّفَّة. طوال ذلك الوقت كان النَّهر والشَّاطئ والغابات ساكنة

تمامًا إلا من صوت طشطشة الماء تحت ضربات العجلة الخلفيَّة ودمدمة هذه الأشياء. أزحنا جذع الشَّجرة من طريقنا كيفما اتُّفق. سهام، يا إلهي! كُنَّا عُرضةً لها. ودخلت بسُرعة لأغلق المصاريع المُطلَّة على اليابس، وذلك الأحمق مُدير الدَّفَّة، كان يُمسك العجلة بيديه رافعًا رُكبتيه عاليًا ضاربًا الأرض بقدميه مُحرِّكًا شفتيه كحصان ملجوم، عليه اللَّعنة! كُنَّا نترنَّح على بُعد عشر أقدام من الضَّفَّة، وكان عليَّ أن أنحني خارجًا كي أستطيع إغلاق المصراع الثَّقيل، فرأيتُ وجهًا بين الأغصان مُحاذيًا لوجهي ينظر إليَّ بوحشيَّةٍ وثباتٍ، وفجأةً وكما لو أن غلالة أُزيحت عن عيني، رأيتُ في عُمق الظَّلاميَّة المُتشابكة صدورًا عارية، وأذرعًا وأرجلًا وأعيُنًا لامعة.. كانت الغابة تغصُّ بالأطراف الآدميَّة المُتحرِّكة المُلتمعة بلونها البُرونزي. اهتزَّتِ الأغصان وتمايلت وأصدرت حفيفًا وانطلقت السِّهام من بينها، ثم أغلق المصراع... «ضعها في اتِّجاه مُستقيم»، قُلتُ لمُدير الدَّفَّة. تصلَّب رأسه ونظر بوجهه إلى الأمام، لكنَّ عينيه ظلَّتا تدوران، واستمرَّ في رفع قدميه وإنزالهما برفق وتجمَّع الزَّبد في فمه قليلًا... «ابقَ هادئًا»، صحتُ فيه بغضب، وكما لو أنني وجَّهت أمرًا إلى الأشجار ألا تهتز بفعل الرِّيح. انطلقت خارجًا مثل السَّهم، وتحتي مُباشرةً كانت هناك جلبة أقدام مُهتاجة فوق السَّطح الحديدي، وتساؤلات مُضطربة، وصرخ صوت: «هل يُمكنك الرُّجوع؟» ولمحت موجة على شكل حرف V أمامنا، ماذا؟ عائق آخر. وانفجر تحت قدمي وابل من الطَّلقات. كان المُهاجرون قد فتحوا نيران بنادق الونتشستر لتصُبَّ الرَّصاص على الأدغال، وصعد جحيم من الدُّخان الكثيف إلى الأعلى ما لبث أن سار إلى الأمام ببُطءٍ، فشتمته؛ إذ لم يعُد باستطاعتي رؤية العائق أو الشَّجرة المُلقاة، وقفتُ بالباب

أُحَدِّق النَّظر، وأسراب السِّهام تتَّجه نحوي، ربما كانت تلك سهامًا مسمومةً، لكنها بَدَت وكأنها أعجزُ من أن تقتل قطًّا، وضجَّتِ الغابة بالصُّراخ، لقد أطلق قاطعو الأخشاب ما يُشبه صرخات الحرب، وأصمَّني صوت بُندقيَّة انطلق خلفي.

نظرتُ من فوق كتفي. كانت حُجرة قائد الدَّفَّة لا تزال تعُجُّ بالضَّجيج والدُّخان عندما هُرعت إلى العجلة. كان الزِّنجي الأحمق قد ترك كُلَّ شيءٍ ليفتح المصراع ويطلق النَّار من البُندقيَّة المارتيني هنري. كان يقف أمام الفجوة الواسعة مُحملقًا، فصرختُ به أن يعود بينما كُنتُ أقوِّم اعوجاج اتِّجاه الزَّورق. لم يكُن أمامي مجال للدَّوران حتى لو أردتُ ذلك. وكان جذع الشَّجرة المُعيق في مكان قريب أمام ذلك الدُّخان اللَّعين. لم يكُن هناك وقت أُضيِّعه؛ لذا شققتُ طريقي في اتِّجاه الضَّفَّة مُباشرةً، حيث كُنتُ أعرف أن المياه عميقة. شققنا طريقنا ببُطءٍ بمُحاذاة الشُّجيرات المُدلَّاة لفائف من الأغصان المُتكسِّرة والأوراق المُتطايرة. توقَّف سيل الطَّلقات في الأسفل عندما فرغت مواسير البنادق كما كُنتُ قد توقَّعت، ورددتُ رأسي للخلف من طلقة التمعت وعبرت حجرة مُدير الدَّفَّة مُحدثةً ثُقبًا في المصراع عند الدُّخول، وآخر عند الخروج. وفيما أنا أنظر إلى مُدير الدَّفَّة المجنون الذي كان يهزُّ بُندقيَّته الفارغة ويصرخ باتِّجاه الشَّاطئ، ورأيتُ ظلال رجال يركضون مُنحنين ويقفزون، يظهرون وتختفي أجزاء منهم ثم يختفون تمامًا. ولاح خيال ضخم في الفراغ أمام المصراع، وسقطت البُندقيَّة جانبًا، وخطا الرَّجُل مُتراجعًا بسُرعة، وناظرًا إليَّ من فوق كتفه نظرةً غريبةً عميقةً مألوفةً، ثم سقط عند قدمي، وارتطمت حافَّة رأسه بالدَّفَّة مرَّتين وتطوَّح شيء بدا مثل قصبة

طويلة، ثم سقط بقُوَّة فوق مقعد صغير، وبدا كما لو أنه قد فقد توازنه وهو يُحاول انتزاع ذلك الشَّيء من شخص على الشَّاطئ. تبدَّد الدُّخان الخفيف بعيدًا، وكُنَّا قد تجاوزنا العائق، ونظرتُ إلى الأمام فتبيَّنتُ أنه سيكون في استطاعتي الانحراف بالزَّورق بعيدًا عن الضَّفَّة بعد نحو مائة ياردة، لكنني أحسستُ بدفء شديد وبَلَلٍ في قدمي، وهو ما اضطرني للنَّظر لأسفل. كان الرَّجُل قد تدحرج على ظهره وحملق فيَّ مُباشرة. كانت يداه تُمسكان بالقصبة بقُوَّة، وكانت تلك قصبة رُمح إمَّا أنها أُطلقت، وإمَّا أنها رُميت من خلال الفتحة فأصابته في خاصرته تحت الضُّلوع مُباشرةً فغاص النَّصل في لحمه مُحدثًا فجوةً مُخيفةً، امتلأت فردتا حذائي، كانت بِركةٌ من الدِّماء راكدة تلمع بلون أحمر قانٍ تحت الدَّفَّة، وقد التمعت عيناه ببريق مُدهش، وانفجر وابل الطَّلقات مرَّةً أُخرى فنظر إليَّ بأسى وهو يُمسك بالحربة كما لو أنها شيء ثمين، وبدا كأنه يخشى أن أُحاول انتزاعها منه. بذلتُ الجُهد لتخليص عيني من نظراته المُحملقة والانتباه للقيادة. وتحسَّسَت إحدى يديَّ طريقها نحو الصَّافرة البُخاريَّة فوق رأسي، وأطلقت صافرات سريعة مُتقطِّعة فخمد الصَّخب وصرخات الحرب فورًا. ثم انطلق من أعماق الغابة نُواحٌ مُتَّصلٌ مُرتعشٌ يدلُّ على ذُعر قاتل ويأسٍ تامٍّ بدا كأنه يتبع آخر أمل مُنطلق من الأرض. كانت هناك فوضى عظيمة بين الأشجار، وتوقَّف سيل السِّهام وجلجلت بضع طلقات، ثم تلا ذلك صمت سمعت خلاله ضربات العجلة الخلفيَّة بوضوح. وبدأتُ أُوَجِّه الدَّفَّة الصُّلبة إلى اليمين في اللَّحظة التي لاح فيها بالباب الحاج الذي كان يرتدي البيجامة الورديَّة مُهتاجًا... «لقد أرسلني

المُدير»، بدأ الكلام بلهجة رسميَّة، ثم توقَّف لوهلةٍ: «يا إلهي»، قال وهو ينظر للجريح.

وقفنا نحن الأبيضين فوقه فشملتنا نظراته البرَّاقة المُتسائلة، وأقول لكم إنه بدا كما لو كان سيطرح علينا سؤالًا بلُغة لا تُفهم. لكنه مات دون أن ينبس ببنت شفة، من دون أن يقوم بحركة، ومن دون أن ترتعش عضلة فيه إلا في اللَّحظة الأخيرة عندما كشَّر فيما يُشبه الرَّدَّ على إشارة لم نرها، أو همسة لم نسمعها، وأضفى عبوسه على قناع الموت الأسود على وجهه تعبيرًا مُتوعِّدًا كئيبًا مُظلمًا لا يُدرك، واستحال بريق النَّظرة المُتسائلة المُنطفئ إلى خواء زجاجي... «أتعرف القيادة؟»، سألتُ الرَّجُل بشغفٍ، فبدا مُتشكِّكًا، فأطبقتُ على ذراعه ليفهم على الفور أنني أردته أن يُوجِّه الدَّفَّة، سواء كان يعرف القيادة أم لا، لقد كُنتُ في الواقع مُتطلِّعًا إلى تغيير حذائي وجوربي.. «إنه ميَّتٌ»، تمتم الرَّجُل بتأثُّر كبير.. «لا شكَّ في ذلك»، قُلتُ وأنا أشدُّ رباط الحذاء كالمجنون.. «بالمُناسبة، أعتقد أن السَّيِّد كورتز ميِّت أيضًا الآن».

في تلك اللَّحظة كانت هذه هي الفكرة المُسيطرة. كان هناك شعور بالخيبة الكُبرى، كما لو أنني اكتشفتُ أنني كُنتُ أُجاهد من أجل شيء بلا جوهر. لم أكُن لأشعر بقرف أكثر من ذلك لو أنني كُنتُ قد قطعتُ كل هذه المسافة من أجل هدف واحد هو التَّحدُّث إلى السَّيِّد كورتز، التَّحدُّث إلى.... ورميتُ بإحدى فردتي حذائي في النَّهر، وتأكَّدتُ عندها أن هذا بالضَّبط هو ما كُنتُ أسعى إليه.. التَّحدُّث إلى السَّيِّد كورتز. واكتشفتُ شيئًا غريبًا هو أنني لم أتخيَّله يفعل شيئًا، بل لم أتخيَّله يتكلَّم. لم أقل لنفسي.. «لن أراه بعد الآن»،

أو «لن أُصافحه بعد الآن»، بل قُلتُ: «لن أستمع إليه بعد الآن»، إذ قدَّم الرَّجُل نفسه صوتًا، وهذا لا يعني بالطَّبع أنه لم يرتبط لديَّ بعمل ما. ألم يجرِ إخباري بكل لهجات الحسد والإعجاب أنه قد جمع وقايض واحتال وسرق من العاج أكثر ممَّا فعل المُوَظَّفون مُجتمعين؟ لم تكُن تلك هي المشكلة. كانت المشكلة في كونه موهوبًا، وأن أبرز مواهبه، والتي حملت معها شعورًا بالحضور الحقيقي هي مقدرته على الحديث. كلماته.. موهبة التَّعبير، ذلك السَّيل من الضَّوء، المُحيِّر المُنوِّر المُمجِّد المُتذبذب المُثير للازدراء، أو ذلك الدَّفق الخادع الآتي من قلب ظُلمة صلدة.

ألقيتُ بفردة الحذاء الثَّانية إلى شيطان ذلك النَّهر، وفكَّرتُ «كُلُّ شيءٍ انتهى، فات الأوان، لقد اختفى.. اختفت الموهبة، بفعل حربة أو سهم أو هراوة. لن أستمع إلى هذا الشَّخص وهو يتحدَّث بعد ذلك كله». واكتسى حُزني بفيض عاطفي مُذهل مثل ذلك الذي رأيته في ذلك الحُزن المُعربد لأولئك المُتوحِّشين بين الأشجار. ولم أكُن لأشعر بالعُزلة القاتلة بأكثر من ذلك لو أنني جُرِّدتُ من مُعتقد لي، أو فقدتُ قدر حياتي. لماذا تزفرون بهذه الطَّريقة الوحشيَّة، أحدكم؟ سخف؟ حسنًا، هذا سخف. يا إلهي! ألا يجب على المرء.. هيَّا، أعطني قليلًا من التَّبغ.

كانت هناك وقفة سُكون عميق، ثم اشتعل عود ثقاب فظهر وجه «مارلو» النَّحيل مُنهكًا أجوف بتجاعيده الطُّولية وجفونه المُثقلة تعلوه سيماء اهتمام مركز، وبينما كان يسحب أنفاسًا قويَّة من غليونه، بدا وكأنه يذهب ويأتي داخل اللَّيل بتموُّجاته المُنتظمة للهب الخفيض، وانطفأ عود الثِّقاب.

«سَخَفٌ»، صَرَخ... «إن هذا أسوأ ما يتعرَّض له من يُحاول الحديث... ها أنتم جميعًا هنا، كل منكم مُرتبط بعنوانين جيِّدين، مثل جسم سفينة بمرساتين، جزار في إحدى الزَّوايا وشرطي في زاوية أُخرى، شهيَّة مُمتازة ودرجة حرارة عادية.. أتسمعون؟ عادية من نهاية السَّنة إلى نهاية السَّنة وتقولون سخف! ليكُن سخفًا.. يا للسَّفه! سخف. أيُّها الأولاد الأعزَّاء ما الذي تتوقَّعونه من رجل ألقى بحذائه من على ظهر الزَّورق بدافع العصبيَّة المُجَرَّدة، زوج من الأحذية الجديدة! إنني أُفَكِّر بذلك الآن. من المُحيِّر أنني لم أذرف الدَّمع، وعمومًا فأنا فخور بنفسي. لقد قطعتُ كل ذلك فكرة افتقادي ذلك الامتياز الذي لا يُقدَّر وهو الإصغاء إلى كورتز الموهوب. كُنتُ مُخطئًا بالطَّبع. فقد كان ذلك الامتياز في انتظاري. نعم، لقد سمعتُ أكثر ممَّا يجب، وكُنتُ على حقٍّ أيضًا. صوت. كان أكثر من صوت بقليل، ولقد سمعته، هو ذلك الصَّوت، وأصوات أخرى، وكلها كانت أكثر من أصوات بقليل، وذكرى ذلك الزَّمَن تحوم حولي دون أن أستطيع إدراكها مثل ارتجافة احتضار لإحدى التَّمتمات الهائلة، سخيفة، عدوانية، قذرة ووحشيَّة، أو ببساطة دنيئة، مُجَرَّدة من أيِّ شعور، أصوات، أصوات، أصوات.. حتى الفتاة نفسها.. الآن».

وصمت طويلًا.

«لقد أبعدت شبح مواهبه أخيرًا بكذبة»، بدأ فجأةً من جديد.. «فتاة؟ ماذا؟ هل قُلت فتاة؟ إنها خارج هذا تمامًا. إنهنَّ -أعني النِّساء- خارج ذلك كله.. يجب أن يكُنَّ خارجه. يجب أن نساعدهن على البقاء في ذلك العالم الجميل الخاصِّ بهن، كى لا يصبح عالمنا أسوأ، آه، لقد كان عليها أن تكون خارجه، وكان

عليكم أن تسمعوا جُثَّة السَّيِّد كورتز الخارجة من قبرها تقول: «خطيبتي» إذن لعرفتم عندها كم كانت خارج ذلك كله، وعظم جبهة كورتز الشَّامخ. يُقال إن الشَّعر يستمرُّ في النُّمو أحيانًا، لكن تلك.. آه.. العيِّنة، لقد كانت خالية من الشَّعر بشكل لافت، لقد مسَّتِ البرِّيَّة رأسه فأصبح مثل الكُرة.. كُرة عاجيَّة.. وربتت عليه فانظروا.. لقد ذوى، أخذته وأحبته وعانقته وسرت في عروقه واستهلكت لحمه وتملَّكت روحه بواسطة طقوس تلقين شيطانيَّة غامضة. كان حبيبها ومُدلِّلها، العاج؟ أعتقد ذلك، أكوام منه، أكداس، ضاق به الكوخ الطِّيني العتيق. كأن نابًا واحدًا لم يبقَ منه على وجه الأرض أو تحتها في البلاد.. «مُعظمه مُتحجِّر»، قال المُدير باستخفافٍ، ولم يكُن مُتحجِّرًا بقدر ما لم أكُن أنا كذلك، ولكنهم يصفونه بذلك عند استخراجه، ويبدو أن هؤلاء الزُّنوج يدفنون الأنياب، أحيانًا، ولكن كان من الواضح أنهم لم يستطيعوا دفن تلك الحزمة على عُمقٍ كافٍ لإنقاذ السَّيِّد الموهوب كورتز من قدره. ملأنا به الزَّورق واضطررنا لتجميع كثير منه فوق السَّطح، وهكذا كان في استطاعته أن يرى ويبتهج بقدر ما يرى لأن تقدير تلك النِّعمة استمرَّ معه إلى النِّهاية. كان عليكم أن تسمعوه يقول «عاجي»، نعم، لقد سمعته يقول: «خطيبتي، عاجي، محطتي، نهري»، كان كُلُّ شيءٍ ملكه، وقد جعلني ذلك أحبس أنفاسي في انتظار سماع انفجار البرِّيَّة بضحكة هائلة تُدوِّي فتهزُّ النُّجوم الثَّابتة في سماواتها. كُلُّ شيءٍ كان له. لكن ذلك كان شيئًا تافهًا. كانت المسألة هي أن تعرف إلى أيِّ شيء كان ينتمي، وكم من قُوى الظَّلام تنازعه إليها. كان ذلك هو التَّأمُّل الذي روَّعكم. كان من المُستحيل، ولم يكُن من المُفيد أيضًا، أن يُحاول أحد التَّخيُّل. لقد اتَّخذ مكانًا مرموقًا بين شياطين الأرض، وإننى أقصد

ذلك حرفيًّا. ليس في إمكانكم أن تفهموا، وكيف لكم ذلك؟ وتحت أقدامكم أرض صُلبة ويُحيط بكم جيران لُطفاء على استعداد لأن يُحيُّوكم أو يُهاجموكم، تخطُّون برفقٍ بين الجزار وبين الشُّرطيِّ بالإرهاب المُقدَّس للفضيحة والمشنقة ومصحَّات المجانين.. كيف لكم أن تتخيَّلوا إلى أيِّ منطقة خاصَّة من العصور الأُولى يمكن لإنسان أن تقوده قدماه الطَّليقتان من خلال الوحدة.. الوحدة المُطلقة من دون شرطي، من خلال الصَّمت.. الصَّمت المُطلق، حيث لا صوت جارٍ لطيف ينطلق مُحذِّرًا هامسًا بذكر الرَّأي العام؟ هذه الأشياء الصَّغيرة هي التي تصنع الفروق الكبيرة. وعندما تزول يكون عليك أن تعود إلى قُواك الفطريَّة الخاصَّة، إلى مقدرتك الخاصَّة على الإخلاص، وبالطَّبع يمكن أن تكون أحمقَ بما فيه الكفاية لتضلَّ الطَّريق، أو حتى غبيًّا لدرجة لا تعرف معها أن قُوى الظَّلام تُهاجمك. وأقول لكم، لم يُساوم مُغفَّل الشَّيطان على روحه أبدًا. ففي الأحمق كثير من الحُمق، وفي الشَّيطان كثير من الشَّيطان ولا فرق. وربما تكون مخلوقًا تُسبِّح بحمدك السَّماوات فتعميك وتصمك تلك النُّذُر والأصوات السَّماويَّة عن سواها، وتتجرَّد الأرض بالنِّسبة لك إلا من كونها مكانًا للوقوف، ولا أدَّعي عندها معرفة ما إذا كانت تلك خسارة أم مكسبًا، لكن غالبيَّتنا ليست هنا أو هناك، فالأرض بالنِّسبة لنا مكان للعيش، حيث إن علينا أن نقبل بالنُّذُر والأصوات والرَّوائح أيضًا، بحقِّ الرَّبِّ، نستنشق رائحة لحم فرس النَّهر الميِّت ولا نُصاب بالتَّسمُّم. وهنا، ألا ترون؟ تأتي قُوَّتكم، والإيمان بمقدرتكم على حفر فجوات للتَّواضُع لتدفن الأشياء فيها، وقُوَّتكم على التَّكريس لا من أجل أنفسكم، بل من أجل عمل غامض يكسر الظَّهر، وهذا صعب جدًّا. إنني لا أُحاول التَّبرير أو التَّفسير، إنني أُحاول أن أُقيِّم

السَّيِّد كورتز، لنفسي؛ لظل السَّيِّد كورتز، ذلك الطَّيف القاسي الآتي من وراء اللا مكان. أكرمني بثقته العجيبة قبل أن ينتهي إلى العدم. كل ذلك لأنه استطاع التَّحدُّث معي باللُّغة الإنجليزية. كان كورتز قد أنهى جزءًا من تعليمه في انجلترا، ولقد كان من اللُّطف بحيث قال هو نفسه إن عواطفه كانت في المكان المُناسب. كانت أُمُّه نصف انجليزيَّة، وكان أبوه نصف فرنسي. لقد أسهمت أوروبا كلها في صُنع كورتز. وبالتَّدريج علمتُ أن «الجمعيَّة العالميَّة لإنهاء الأعراف المُتوحِّشة» عهدت له بإعداد تقرير لإرشادها في المُستقبل. وكان قد أعدَّه بالفعل، وقد رأيتُه، وقرأتُه، وكان بيانًا بليغًا، ينبض بالبلاغة، ولكنه كان مشحونًا بالتَّوتُّر كما أعتقد. سبع عشرة صفحة من الكتابة بخطوط مُتلاصقة وجد الوقت ليكتبها. وبدا أن ذلك كان قبل –لنقُل- قبل أن تتلف أعصابه، وهو ما جعله يُقيم رقصات مُعيَّنة في منتصف اللَّيل تنتهي بطقوس لا تُحكى كانت -كما استنتجتُ كارهًا ممَّا سمعت مرارًا- تُقدَّم إليه. أتفهمون؟ للسَّيِّد كورتز نفسه. لكنها كانت قطعة مكتوبة جيِّدًا، ولكن الفقرة الاستهلاليَّة في ضوء ما علمت فيما بعد، تصعقني الآن كنذير شُؤم. فقد انطلق في جداله من أننا نحن البيض انطلاقًا من نقطة التَّطوُّر التي وصلنا إليها.. «يجب أن نُظهر لهم –المُتوحِّشين- في صورة كائنات خارقة للطَّبيعة، يجب أن نأخذهم بقُوَّة مثل قُوَّة الآلهة»، وهكذا.. «وبالمُمارسة البسيطة لعزيمتنا يُمكننا أن نخلق قُوَّة خيِّرة لا تُقهر»، إلخ.. إلخ.. من تلك النُّقطة بدأ التَّحليق وأخذني معه. كان الخطاب رائعًا على الرغم من أن من الصَّعب تذكُّره كما تعلمون، وقد أشعرني ذلك بعظمة قُوَّة البلاغة التي لا تُقهر.. قُوَّة الكلمات.. الكلمات النَّبيلة المُلتهبة. ولم تكُن هناك إشارات تقطع ذلك التَّدفُّق السِّحري من العبارات

سوى مُلاحظة في أسفل الصَّفحة الأخيرة بدا واضحًا أن يدًا مُتسرِّعة خطتها بتسرُّع فيما بعد. يمكن اعتبارها شرحًا لأسلوب. كانت بسيطة جدًّا. وفي نهاية ذلك النِّداء المُؤثِّر لكل المشاعر الغيريَّة بَدَت مُتوهِّجةً تُثير وترعب كومضة برق في سماء صافية.. «أبيدوا كل المُتوحِّشين». كانت الغرابة في كونه قد نسي كُلَّ شيءٍ عن ذلك التَّذييل كما يبدو. فقد توسَّل إليَّ فيما بعد، عندما عاد إلى نفسه بصورة ما، أن أُعطي عنايةً فائقةً لـ«كتيبي» -كما كان يدعوه- فقد كان واثقًا من تأثيره الجيِّد على حياته العمليَّة في المُستقبل. لقد حصلتُ على معلومات كاملة عن هذه الأشياء جميعًا، وفضلًا عن ذلك، كما حدث فيما بعد، كان عليَّ الاحتفاظ بذكراه، ولقد قُمتُ بما فيه الكفاية في هذا المجال، ممَّا يُعطيني حقًّا لا جدال فيه لأن أُلقيها، إذا أردتُ، في صندوق قمامة التَّقدُّم بين كل النِّفايات، على سبيل المثال بين كل قطط الحضارة الميِّتة، ولكن كما ترون لا خيار لي، فهو لن يُنسى، وأيًّا من كان هو فليس بالرَّجُل العادي. كانت لديه قُوَّة أن يفتن أو يرعب الأرواح البدائيَّة برقصات سحريَّة مُفزعة تُقام على شرفه، وكان في استطاعته أيضًا أن يملأ أرواح المُهاجرين الصَّغيرة بالشُّكوك المُرَّة. كان له صديق مُخلص واحد على الأقل، وكان قد قهر روحًا واحدة في العالم الذي لم يكُن بدائيًّا ولا مُلوَّثًا بإيثار الذَّات. كلَّا، لا يُمكنني نسيانه، على الرغم من أنني لستُ مُؤهَّلًا لإثبات ما إذا كان ذلك الشَّخص يستحقُّ الحياة التي فقدناها بالوصول إليه. لقد افتقدتُ مُدير الدَّفَّة كثيرًا، افتقدته حتى عندما كانت جُثَّته لا تزال مُلقاةً في حجرة مُدير الدَّفَّة، ربما تعتقدون أن ذلك الأسى على مُتوحِّش لم يُساوِ أكثر من ذرَّة رمل في صحراء سوداءَ. حسنًا، ألا ترون أنه فعل شيئًا، لقد أدار الدَّفَّة لأشهُر عديدة كان هناك ورائي. عونًا.. أداةً. كان

ذلك نوعًا من المُشاركة، هو يُدير لي الدَّفَّة.. وكان عليَّ أن أعتني به، وكانت تقلقني نواقصه. هكذا نشأ بيننا عهد لم أدركه إلا عندما تحطَّم فجأةً. وما زال العُمق الحميمي للنَّظرة التي رمقني بها عندما تلقى طعنته في ذاكرتي إلى اليوم، مثل تعبير عن صلة بعيدة تأكدت في لحظة سامية.

المسكينُ الأحمقُ! لو أنه ترك ذلك المصراع وشأنه. لم يكُن له زمام. لا زمام، تمامًا مثل كورتز، شجرة تُميلها الرِّياح. عندما ارتديتُ خُفَّين جافَّين سحبته خارجًا بعد أن انتزعتُ الحربة من خاصرته بصعوبة، وأعترف بأنني قُمتُ بهذه العمليَّة وأنا أُغمض عينيَّ بقُوَّة. ارتفع كعباه قليلًا عندما عبرنا عتبة الباب، بينما كانت كتفاه تلتصقان بصدري. كُنتُ أحضنه من الخلف بيأس. آه، لقد كان ثقيلًا، أثقل من أيِّ رجل آخر على وجه الأرض كما أتصوَّر. ثم، ومن دون أيِّ ضجَّة، قلبته من على ظهر الزَّورق فتخطفه التَّيَّار مثل حزمة من العُشب. ورأيتُ الجُثَّة تنقلب مرَّتين قبل أن تختفي عن ناظري إلى الأبد. كان المُدير وكل المُهاجرين مُجتمعين في الجزء الظَّليل من الأرضيَّة حول حجرة قائد الدَّفَّة، يُثرثرون مع بعضهم مثل سرب من الغربان المُستثارة. وكان قد راعني همس حول حزمي القاسي، ولا أدري لِمَ كانوا يُريدون إبقاء تلك الجُثَّة مُعلَّقةً في الجوار، لتحنيطها. ربما، لكنني كُنتُ قد سمعتُ شيئًا آخرَ، وسمعتُ كذلك تمتمة مُنذرة بالشُّؤم في الطَّابق السُّفلي. أمَّا أصدقائي من قاطعي الأخشاب، فقد رُوِّعوا كذلك لسبب أكثر وضوحًا، على الرغم من أنني أعترف بأن السَّبب نفسه لم يكُن مقبولًا. نعم، كُنتُ قد قرَّرتُ أنه إذا كان له أن يُؤكل فسيكون من نصيب الأسماك وحدها. كان قائد الدَّفَّة من الدَّرَجة الثَّانية في حياته، لكنه الآن ميِّتٌ، وكان من الممكن أن يُصبح مرغوبًا فيه بدرجة كبيرة،

أو أن يتسبَّب في مشاكل مُروِّعة. كما أنني كُنتُ أخشى أن أضطر لتسلُّم الدَّفَّة؛ لأن الرَّجُل صاحب البيجامة الورديَّة بدا شخصًا أخرقَ ميؤوسًا منه في ذلك العمل.

فعلتُ كل هذا بعد الانتهاء من الجنازة البسيطة مُباشرةً. كُنَّا نسير بسُرعة مُتوسِّطة في وسط المجرى، حيث استمعتُ إلى الحديث عنِّي.. كانوا قد يئسوا من كورتز، ومن المحطَّة. مات كورتز، واحترقت المحطَّة، وهكذا، وهكذا. بدا الحاجُّ ذو الشَّعر الأحمرِ مُقتنعًا بأن كورتز المسكين قد نال بثأر مُناسب.. «أقول، كان يجب أن نفتك بهم هناك بين الأشجار، هه؟ ماذا ترون؟ ماذا تقولون؟». تراقص ذلك الوغد الأحمر المُتعطِّش للدِّماء، على الرغم من أنه أوشك أن يُغمى عليه عندما رأى الجريح. ولم أتمالك نفسي من القول: «لقد أطلقتُ كثيرًا من الدُّخان على كل حال». وكُنتُ قد لاحظتُ من خلال حفيف الورق عند رُؤوس الأشجار وتطايرها أن كل تلك الطَّلقات قد ذهبت في الهواء، ولا يمكنك إصابة شيء ما لم تُصوِّب، ثم تُطلق النَّار من فوق الكتف، لكنَّ هؤلاء الرِّفاق كانوا يُطلقون النَّار من الأسفل وأعيُنهم مُغمضة. أمَّا الاندحار فقد أكَّدتُ وكُنتُ على حقٍّ، أن سببه كان صوت الصَّافرة البُخاريَّة. عندها نسوا كورتز وبدأوا يُزمجرون عليَّ باحتجاج غاضب.

وقف المُدير بجوار الدَّفَّة يُتمتم بسرِّيَّة حول ضرورة العودة إلى أسفل النَّهر قبل أن يحلَّ الظَّلام عندما رأيتُ عن بُعد بُقعة خالية على ضفَّة النَّهر وهيكل بناية ما، وسألتُ: «ما هذا؟»، فصفَّق بيديه بدهشة، ثم صرخ: «إنها المحطَّة»، وتقدَّمتُ شيئًا فشيئًا بالسُّرعة المُتوسِّطة نفسها.

من خلال منظاري رأيتُ مُنحدرَ أحد التِّلال تكسوه أشجار غريبة، وقد خلا تمامًا من أيِّ شُجيرات تحتها. وعلى القمَّة كانت هناك بناية مهجورة غطَّت الأعشاب الطَّويلة نصفها، بَدَت الفجوات الكبيرة في السَّطح ذي القمَّة المُدبَّبة فتحات سوداء عن بُعد، وبدت في خلفيَّتها الأحراش والغابات. لم يكُن هناك حاجز، أو حدٌّ من أيِّ نوع كان، ولكن من الواضح أن شيئًا من هذا القبيل كان هناك، إذ بقيت بجانب المنزل ستَّة أعمدة دقيقة في صفٍّ شبه مُنتظم، وقد زُيِّنت رُؤوسها بكُرات محفورة. أمَّا السِّياج، أو ما كان بين أعواده، فقد اختفى. وحول ذلك كله كانت الغابة. كانت ضفَّة النَّهر خاليةً. وعلى الشَّاطئ رأيتُ رجلًا يرتدي قُبَّعةً كبيرةً بَدَت مثل عجلة عربة، يُشير بعنادٍ بيده، وبنظرةٍ فاحصةٍ على طرفي الغابة الأعلى والأسفل شاهدتُ تحرُّكات.. كانت بعض الأشباح الآدميَّة تتحرَّك هناك. سرتُ بالزَّورق إلى الأمام بحذرٍ، ثم أوقفتُ المُحرِّك وتركتُ الزَّورق سائرًا وحده. وبدأ الرَّجُل الواقف على الشَّاطئ يصرخ طالبًا مِنَّا الرُّسُوَّ.. «لقد هُوجمنا»، صاح المُدير.. «أعرف، أعرف»، صرخ الآخر بمرح.. «تقدَّموا. كُلُّ شيءٍ على ما يُرام. إنني سعيد».

ذكَّرتني تلك الهيئة بشيءٍ كُنتُ قد رأيته.. شيء مُضحك كُنتُ رأيتُهُ في مكان ما. وبينما كُنتُ أُحاول السَّير للأمام كُنتُ أتساءل: «تُرى ماذا يُشبه ذلك الشَّخص؟» وفجأةً تذكَّرتُ... إنه يُشبه المُهرِّج بملابسه المصنوعة من مادة ربما كانت كتَّانًا هولنديًّا بُنِّيَّ اللَّون، إلا أنها كانت مليئةً بالرُّقع الزَّرقاء والحمراء والصَّفراء، في الأمام وفي الخلف وعلى الكوع والرُّكبتين. كانت الألوان تُغلِّف معطفه، وكان اللَّون القُرمزيُّ يُذيِّل سرواله من الأسفل، وقد جعلته الشَّمس يبدو مُشرقًا وأنيقًا بصورةٍ رائعةٍ، فقد كانت الرُّقَع مصنوعةً بشكلٍ جميلٍ

للغاية. كان وجه الفتى حليقًا وسيمًا خاليًا من الملامح بأنفه المُقشَّر، وعينيه الزَّرقاوين الصَّغيرتين. وكان الابتسام يعقب العبوس على مُحَيَّاه كما يعقب النُّورُ الظِّلَّ على سهل اجتاحته الرِّيح... «انتبه أيُّها الرُّبَّان»، صرخ قائلًا: «كان هناك عائق عندك اللَّيلة الفائتة»... «ماذا! عائق آخر؟»، وأعترف لكم بأنني بدأتُ أسبُّ بشكلٍ مُخجلٍ، فقد كدتُ أثقب زورقي المُحطَّم مُنهيًا تلك الرِّحلة الرَّائعة. أدار المُهرِّج الواقف على الشَّاطئ أنفه الأحمر إليَّ قائلًا وقد علت الابتسامة وجهه: «أنت إنجليزي؟»، وصرختُ وأنا على الدَّفَّة: «وهل أنت إنجليزي؟»، اختفت الابتسامة، وهزَّ رأسه كما لو أنه أحسَّ بالأسف لخيبة أملي، ثم علاه الاستبشار من جديد، فقال مُشجِّعًا: «لا عليك»... «هل حضرنا في الوقت المُناسب؟»، سألتُ... «إنه هناك»، أجاب بإيماءة من رأسه صوب التَّلِّ، وفجأةً علته الكآبة. كان وجهه مثل شمس الخريف تُظلم لحظةً، ثم تُشرق في اللَّحظة التَّالية.

بعد أن ذهب المُدير يُرافقه المُهاجرون المُسلَّحون حتى الأسنان إلى المنزل صعد الشَّابُّ إلى ظهر الزَّورق... «أقول لك إن ذلك لا يُعجبني. هؤلاء السُّكَّان لا يزالون بين الأشجار»، أكَّد لي بإصرار أن كُلَّ شيءٍ على ما يُرام... «إنَّهم ناس بُسطاء»، ثم أضاف: «حسنًا. إنني سعيد لقدومكم، لقد استغرقني إبقاؤهم بعيدًا كل وقتي»، وصرختُ به: «لكنَّك قُلت إن كُلَّ شيءٍ على ما يُرام»... «إنَّهم لم يقصدوا أن يُلحقوا بكم الأذى»، وما إن بدأتُ الحديث مرَّةً أُخرى حتى بادرني مُصحِّحًا خطأه: «ليس هكذا بالضَّبط»، ثم أضاف بحيويَّةٍ: «في اعتقادي أن حجرة قائد الدَّفَّة في حاجة إلى تنظيف»، وفي اللَّحظة التَّالية أخذ ينصحني بإبقاء كثير من البُخار في المرجل لإطلاق الصَّافرة في

حالة أيِّ خطرٍ: «إن صفرةً واحدةً تفعل أكثر ممَّا تفعله كل بنادقكم. إنَّهم ناس بُسطاء»، ثم أخذ يُثرثر بشكل أربكني، وبدا وكأنه يُحاول أن يُعوِّض عن فترات صمت طويلة، بل إنه لمَّح ضاحكًا إلى أن هذا هو الوضع حقًّا... «ألا تتحدَّث مع السَّيِّد كورتز؟»، سألتُ، فأجاب بعباراتٍ حادَّةٍ: «إن أحدًا لا يتحدَّث مع هذا الرَّجُل، إنَّهم يستمعون اليه، أمَّا الآن»، ولوَّح بذراعه، وفي لمح البصر أصبح في حالة من الكآبة المُريعة، ثم وفي لحظةٍ عاد مرَّةً أُخرى قافزًا، وأخذ بيديَّ وبدأ يهزهما، بينما كان يهذر: «أخي البحَّار.. الشَّرف.. المُتعة.. السُّرور.. أُقدِّم نفسي.. روسي ابن كاهن كبير.. حكومة تامبوف.. ماذا؟ تبغ، تبغ إنجليزي، التَّبغ الإنجليزي الرَّائع الآن. إن ذلك أخي، أُدخِّن؟ وأين هو ذلك البحَّار الذي لا يُدخِّن؟».

خفَّف الغليون من غلوائه، وشيئًا فشيئًا عرفتُ أنه هرب من المدرسة، وأنه عمل بحَّارًا على سفينة روسيَّة، ثم هرب ثانيةً، وعمل لمُدَّة قصيرة على سفينة إنجليزية، وأنه تصالح مع كبير الكهنة، حيث استفاد من ذلك... «ولكن عندما يكون الإنسان شابًّا يجب عليه أن يتبصَّر الأشياء، ويجمع الخبرات والأفكار، وأن يُوسِّع مداركه»، هنا! قاطعته... «من المستحيل أن تعرف. هنا قابلت السَّيِّد كورتز»، قال بوقار غضٍّ مُوبِّخًا، فلزمتُ الصَّمت. كان على ما يبدو قد أقنع أحد مكاتب التِّجارة الهولنديَّة على السَّاحل بأن يُزوِّده بالمؤونة والبضائع، ثم بدأ يتوغَّل عميقًا إلى الدَّاخل مُبتهجًا، مثل طفل من دون أن تكون لديه أدنى فكرة عمَّا يمكن أن يحدث له. وتجوَّل في ناحية ذلك النَّهر لمُدَّة سنتين وحيدًا مُنقطعًا عن النَّاس والأشياء... «إنني لستُ صغيرًا إلى الدَّرَجة التي أبدو فيها، إنني في الخامسة والعشرين»، قال... «في البداية

قال لي العجوز فان شويتين أن أذهب إلى الشَّيطان»، بدأ يروي بمُتعة كبيرة.. «لكني بقيتُ مُلازمًا له وتكلَّمت حتى خاف ألَّا أتوقَّف عن الكلام، لذا فقد أعطاني بعض الأشياء الرَّخيصة وبعض المُسدَّسات، وأخبرني بأنه يرجو ألَّا يراني ثانيةً. هذا الهولندي العجوز الطَّيِّب فان شويتين. لقد أرسلتُ له كمِّية قليلة من العاج منذ عام حتى لا يظنني لصًّا صغيرًا عندما أرجع. أرجو أن يكون قد تسلَّمها، أمَّا بالنِّسبة للباقي فأنا غير مُهتمٍّ. لقد تركتُ لك كومة من الخشب. كان ذلك بيتي القديم، هل رأيته؟».

ناولته كتاب تاوسون، وبدا كما لو أنه سيُقبِّلنى، غير أنه امتنع عن ذلك: «الكتاب الوحيد الذي تركته وكُنتُ أعتقد أنني فقدتُهُ»، قال وهو ينظر له بحُبٍّ... «كثيرة هي الحوادث التي تحدث لشخص يتجوَّل وحده كما تعلم. تضطرب القوارب أحيانًا، وأحيانًا أُخرى يكون عليه أن يُسارع في الاختفاء عندما يغضب النَّاس»، وقلَّب صفحات الكتاب، وسألته: «كتبت بعض المُلاحظات بالرُّوسيَّة؟»، فأومأ برأسه. قُلتُ: «اعتقدتُ أن تلك شفرة خاصَّة»، فضحك، ثم بدا جادًّا ثانيةً: «إنني أتعرَّض لكثير من المتاعب كي أُبقي هؤلاء النَّاس بعيدين»، قال.. «وهل كانوا يُريدون قتلك؟»، سألته «آه، كلَّا»، صرخ، ثم أمسك عن الكلام.. «لماذا هاجمونا؟»، تابعتُ. تردَّد قليلًا، ثم قال بخجلٍ: «إنَّهم لا يُريدون له أن يرحل»... «لا يُريدون؟»، قُلت باستغرابٍ، فهزَّ رأسه بإيماءة غموض وحكمة، ثم صرخ: «أقول لك إن هذا الرَّجُل قد وسَّع مداركي»، وفتح ذراعيه على اتِّساعهما وحدَّق فيَّ بعينيه الزَّرقاوين الصَّغيرتين اللَّتين بَدَتَا كاملتي الاستدارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(٣)

نظرتُ إليه وقد غمرتني الدَّهشة. ها هو ذا أمامي يرتدي ثوبًا مُتعدِّدَ الألوان، كما لو أنه هارب من إحدى فِرَق التَّمثيل الإيمائي، مُتوهِّجا، مُدهشًا. كان وجوده في حدِّ ذاته مُستحيلًا مُستعصيًا على الفهم، مُبلبَلًا. مُعضلة مُستحيلة الحلِّ. كان نجاحه في الوصول إلى تلك البُقعة البعيدة، واستمرار وجوده فيها أمرًا صعبًا على الإدراك، لماذا لم يختفِ في الحال؟ «لقد ذهبت إلى أبعد من ذلك بقليل»، قال... «ثم أبعد قليلًا، ثم أبعد إلى حيث لم يعد باستطاعتي أن أعرف كيف أعود. إن ذلك غير مهم. فلا يزال هناك كثير من الوقت. سأُحاول تدبُّر الأمر، أمَّا أنت فخذ كورتز من هنا بسُرعة.. بسُرعة أقول لك»... كانت نضارة شبابه تُغطِّي على أسماله مُتعدِّدة الألوان، وعلى فقره ووحدته وجوهر خذلان متاهتة العبثيَّة. لأشهر عديدة.. لسنوات عديدة.. لم تكُن حياته تُساوى سوى يوم واحد، وها هو هناك شامخ، حي، طائش التَّفكير. وفي المدى المنظور فإن تحطُّمه بفضل عُمره القليل وتهوُّره الأرعن أمرٌ مُستحيلٌ. أخذتُ بشيءٍ من الإعجاب... شيء من الحسد. لقد دفعته النَّضارة إلى الأمام، لكنها حفظته سالمًا. وهو بالتَّأكيد لم يكُن يُريد من البرِّيَّة غير مكان يتنفَّس ويتحرَّك من خلاله. كان مطلبه الأساسي هو أن يُمارس وجوده، وأن يتقدَّم نحو أقصى حدود الخطر، وبأقصى حدود الحرمان، ولئن كانت روح المُغامرة مُطلقة النَّقاء الجامحة المُنفلتة قد سيطرت على إنسان ما فإن ذلك الإنسان هو هذا الشَّابُّ الرَّثُّ. كدتُ أحسده على ذلك البريق

النَّاصع المُتواضع. لقد بدا وكأنه استهلك تمامًا كل تفكير بالذَّات، حتى إنك تنسى أن ذلك الشَّخص الواقف أمام ناظريك هو الذي مرَّ بتلك الأحداث. إلا أنني لم أُنكر عليه تفانيه في خدمة كورتز، فهو لم يُفكِّر به مليًّا. لقد سعى ذلك إليه فقبله بنوع من القدريَّة المُتلهِّفة. وعليَّ القول إنه بدا لي أن ذلك كان أخطر الأمور التي مرَّ بها على الإطلاق.

لقد التقى الاثنان بقُوَّة حتميَّة، مثل سفينتين هدأ سيرهما قُرب بعضهما، ثم وقفتا تحتكُّ إحداهما بالأُخرى. وأعتقد أن كورتز كان في حاجة إلى مستمعين، ففي مُناسبة معينة، وبينما كانوا يُخيِّمون في الغابة، تحدَّثا طوال اللَّيل. والاحتمال الأكبر أن كورتز هو الذي تحدَّث.. «لقد تحدَّثنا عن كُلِّ شيءٍ»، قال وقد استوعبته الذِّكرى تمامًا.. «لقد نسيتُ أن هناك شيئًا اسمه النَّوم. كان اللَّيل كله يبدو كأنه ساعة. عن كل شيء. كُلِّ شيءٍ.. وعن الحُبِّ أيضًا»، قُلت باهتمام.. «آه، تحدَّث إليك عن الحُبِّ»، فصرخ بانفعال: «لم يكُن ذلك كما تظن. كان يتحدَّث بصورة عامة، لقد جعلني أتبصَّر أشياءَ عديدة.. أشياء...».

فَرَدَ ذراعيه عاليًا، وكُنَّا في ذلك الوقت فوق الزَّورق، فحدجه رئيس قاطعي الأخشاب الذي كان يتسكَّع في الجوار بنظرة من عينيه البرَّاقتين الثَّقيلتين. تلفَّت حولي، وعلى الرغم من أنني أجهل السَّبب فإنني أُؤكِّد لكم أن هذه الأرض، هذا النَّهر، هذه الأدغال، هذه القُبَّة السَّماويَّة المُلتهبة، لم تبدُ لي من قبل أبدًا بذلك الخذلان، بتلك الظُّلمة، بتلك الصَّلادة أمام العقل البشري، بتلك القسوة تجاه الضَّعف الإنساني.. «ومنذ ذلك الوقت وأنت معه بالطَّبع؟»، قلت.

على العكس من ذلك، فقد اتَّضح أن العلاقة بينهما قد ضعفت لأسباب كثيرة، إذ كان قد تدبَّر أمر الاعتناء بكورتز خلال مرضه، كما أخبرني مُتفاخرًا (وقد أشار إلى ذلك كما لو كانت تلك مخاطرة عظيمة)، ولكنَّ القاعدة هي أن كورتز كان يتجوَّل وحيدًا في أعماق أعماق الغابة.. «كثيرًا ما كُنتُ أحضر إلى المحطَّة وأضطر للانتظار أيَّامًا وأيَّامًا قبل أن يحضر»، قال.. «كان هناك ما يستحقُّ الانتظار أحيانًا»، سألته: «ما الذي كان يفعله؟ يستكشف أم ماذا؟»... «نعم بالطَّبع»، لقد اكتشف كثيرًا من القُرى، وبحيرة أيضًا.. لم يكُن يعرف بالضَّبط في أيِّ اتِّجاه. وكان من الخطر السُّؤال كثيرًا، ولكن بعثته كانت في الغالب من أجل العاج.. «ولكن لم يكُن لديه من البضائع ما يُتاجر به في ذلك الوقت»، قُلت مُعترضًا.. «ولكنه ما زال يملك كمِّيات كبيرة من الذَّخيرة»، قُلتُ فأومأ برأسه.. «ولم يكُن وحده بالتَّأكيد»، وتمتم بشيءٍ عن القُرى المُحيطة بتلك البُحيرة. فقُلتُ مُشجِّعًا: «لقد استمال كورتز القبيلة لتتبعه، أليس كذلك؟»، فتململ قليلًا، ثم قال: «لقد كانوا يعبدونه»، كانت رنَّة تلك الكلمات غير عاديَّة، فنظرتُ إليه كمن يبحث عن شيء. كان غريبًا أن ترى فيه هذا المزيج من الرَّغبة والتَّردُّد في التَّحدُّث عن كورتز. لقد ملأ هذا الرَّجُل حياته وشغل فكره وسيطر على عاطفته. انفجر قائلًا: «ما الذي تتوقَّعه؟ لقد أتى إليهم بالبروق وبالرُّعود.. ولم يكونوا قد رأوا شيئًا مثل ذلك.. مُرعب للغاية. كان يمكن أن يكون مُرعبًا جدًّا. لا يمكنك أن تحكم على كورتز كما تحكم على النَّاس العاديين. لا. لا. لا. الآن.. فقط لأُعطيك فكرة.. ليس لديَّ مانع من إخبارك بأنه أراد أن يُطلق النَّار عليَّ أيضًا في أحد الأيام، لكنني لا أحكم عليه».. «يُطلق النَّار عليك»، صرختُ: «ولماذا؟».. «حسنًا، كانت لديَّ

كمية قليلة من العاج. كان زعيم تلك القرية القريبة من بيتي قد أعطاها لي، وكُنتُ أُعطيهم في المُقابل ما أصطاده ببُندقيَّتي، لقد أرادها دون أن يهتم باعتراضي، وقال إنه سيُطلق النَّار عليَّ إذا لم أُعطه العاج وأُغادر البلاد بعد ذلك. لم يكُن هناك ما يمنعه من ذلك. وكانت لديه نزوات من هذا القبيل. لم يكُن هناك ما يمنعه من قتل من يُريد قتله، وكانت تلك حقيقة أيضًا. أعطيته العاج. فمن أجل أيِّ شيء أهتمُّ! ولكنني لم أُغادر البلاد. كلَّا، كلَّا. لم يكُن في استطاعتي أن أتركه، وبالطَّبع كان عليَّ أن أبقى حذرًا، إلى أن عُدنا صديقين من جديد بعد فترة. في تلك الفترة أصابه المرض مرَّةً أخرى. وبعد ذلك كان عليَّ الابتعاد من طريقه، وأنا لم أُمانع. فقد كان يعيش مُعظم الوقت في تلك القُرى القريبة من البُحيرة. أحيانًا كان يزورني عندما يأتي إلى أسفل النَّهر، ولكن كان من الأفضل لي أن ألتزم جانب الحذر أحيانًا أُخرى. لقد قاسى ذلك الرَّجُل كثيرًا. كان يكره كل ذلك، ولكن لم يكُن بإمكانه الخلاص. وقد رجوته عند أوَّل فُرصة أن يُحاول الرَّحيل قبل أن يفوت الأوان، بل عرضتُ عليه أن أرحل معه. كان يُوافق، ولكنه كان يبقى، ويذهب بعد ذلك في رحلة جديدة بحثًا عن العاج، حيث كان يختفي لأسابيع وينسى نفسه بين هؤلاء القوم.. ينسى نفسه.. أتعرف».. قُلتُ: «لقد جُنَّ إذن»، واحتجَّ غاضبًا، فالسَّيِّد كورتز لا يمكن أن يكون مجنونًا، ولو كُنت سمعته يتحدَّث قبل يومين فقط، لما جرؤت على التلميح إلى مثل ذلك الشَّيء.. كُنتُ قد حملتُ منظاري المُكبِّر بينما كان يتكلَّم، وأخذتُ أنظر صوب الشَّاطئ ماسحًا حدَّ الغابة عند كل طرف، وكذلك خلف المنزل، وقد أقلقتني معرفتي بأن هناك ناسًا بين تلك الأشجار السَّاكنة الهادئة.. التي تُشبه في سكونها وهدوئها ذلك المنزل المُدمَّر فوق التَّلِّ. لم

يكُن هناك على وجه الأرض ما يُشير إلى تلك الحكاية العجيبة التي لم تُرْوَ كثيرًا كما أوحت بذلك إليَّ تلك الأسئلة المخذولة تُكملها اهتزازات أكتاف وعبارات مُتقطِّعة، وتلميحات تنتهي بتنهُّدات عميقة. كانت الأدغال ساكنةً مثل القناع.. ثقيلة مثل باب سجن مُوصد.. تبدَّت بسيماء المعرفة الكامنة والتَّرقُّب الصَّبور والصَّمت غير المُدرك البادي عليها. كان ذلك الرُّوسي يشرح لي أن السَّيِّد كورتز لم ينزل إلا مُؤخَّرًا إلى أسفل النَّهر جالبًا معه كل مُقاتلي قبيلة البُحيرة. كان قد غاب أشهُرًا عديدة.. يتقبَّل طقوس العبادة التي كانت تُقدَّم له كما أعتقد.. نزل بعدها بشكل غير مُتوقَّع، بنيَّة بَدَت واضحةً للجميع، للقيام بغزوة عبر النَّهر أو في أسفل المجرى. كان من الواضح أن الشَّهوة لمزيد من العاج قد تغلَّبت على... ماذا عساي أن أقول؟ على المطامع الأقلِّ مادِّيَّة؟ وعلى أيِّ حال فإن أموره ازدادت سوءًا فجأةً: «لقد سمعتُ أنه كان طريحَ الفراش لا يقوى على شيء، فصعدتُ إليه مُنتهزًا الفُرصة»، قال الرُّوسي: «إنه في حال سيِّئ، سيِّئ للغاية»، وجَّهتُ منظاري باتِّجاه المنزل. لم تكُن هناك دلالات للحياة، ولكن كان هناك السَّطح المُدمَّر، وهذا الجدار الطِّيني الطَّويل المُطلُّ من فوق الحشائش، بفتحات نوافذه الثَّلاث الصَّغيرة المُربَّعة. لم تكُن اثنتان منها بالحجم نفسه، بدا كل ذلك في مُتناول يدي، وقُمتُ بحركة فظَّة، فَبَرَزَ أحد الأعمدة المُتبقِّية من هذا السِّياج المُتلاشي ضمن مجال المنظار. تذكرون أنني قُلتُ لكم إن بعض الزَّخارف التي تبدَّت لي عن بُعد خلال مُحاولاتي النَّظر بالمنظار ظهرت واضحة في الواجهة المُدمَّرة من المكان. الآن بدا لي المنظر فجأةً أكثر قُربًا، وكان أوَّل ما فعله ذلك بي أن جعلني أُلقي برأسي إلى الوراء كمن يتحاشى ضربة. ثم بدأت أجول بنظري

مُتمعِّنًا من عمود إلى آخر من خلال المنظار، وعندها أدركتُ خطئي. لم تكُن تلك المقابض المُستديرة زخرفةً، بل كانت رموزًا، كانت مُعبِّرةً ومُحيِّرةً، مُدهشةً ومُزعجةً.. غذاء للفكر، وكذلك للعقبان إذا بقي منها من ينظر إلى الأسفل من الأعالي، ولكنها كانت في جميع الأحوال غذاءً للنَّمل الذي كان على درجة كبيرة من المهارة في تسلُّق الأعمدة، ولكانت رُؤوس تلك الأوتاد أكثر تأثيرًا لو لم تكُن مُولِّيةً وجوهها ناحية المنزل. عدا الوتد الأوَّل الذي شاهدته يُواجهني. لم أُصعق كما ربما تتصوَّرون. لم يعُد رد فعلي الأوَّل أن يكون حركة اندهاش. فلقد توقَّعتُ أن أرى مقبضًا خشبيًّا. عُدتُ على مهل مرَّةً أُخرى إلى العمود الذي شاهدته في البداية.. وهناك كان أسودَ مُجفَّفًا مغروسًا بجفونه المُغمضة.. رأس بدا نائمًا على قمَّة ذلك العمود، وبهاتين الشَّفتين المُنكمشتين كاشفتين عن صفٍّ أبيضَ ضيِّقٍ من الأسنان، مُبتسمًا أبدًا في حلم مُضحك لا ينتهي في ذلك النَّوم الأزلي.

إنني لا أُذيع سرًّا من أسرار المهنة، فقد أخبرني المُدير بعد ذلك أن أساليب السَّيِّد كورتز قد دمَّرت المنطقة. ليس لديَّ أيُّ رأي في هذه القضيَّة، لكنني أُريد أن يكون واضحًا لكم أنه لم تكُن هناك أيُّ مكاسب حقيقيَّة من تلك الرُّؤوس المُعلَّقة هناك. إنها تدلُّ فقط على أنه لم يكُن هناك مانع يحول دون إرضاء شهوات السَّيِّد كورتز المُختلفة، وأنه يشكو من نقيصة فيه.. أمر صغير يشبُّ عن طوق بلاغته العظيمة عندما تُستثار تلك الرَّغبة. ولا أدري إذا كان يعرف بنقيصته تلك أم لا. أعتقد أنه عرف الحقيقة أخيرًا.. فقط أخيرًا، لكن البرِّيَّة كانت قد عرفته في وقت مُبكِّر فانتقمت منه انتقامًا رهيبًا جزاء ذلك الغزو المُذهل. وأظن أنها قد همست له بأشياءَ عن نفسه لم يكُن يعرفها،

أشياء لم تكُن لديه عنها أيُّ فكرة قبل أن يسكن إلى مشورة تلك الوحدة العظيمة.. وقد أثبتت تلك الهمسة سحرها الذي لا يُقاوم. دوَّت عاليًا في داخله، فقد كان أجوفَ تمامًا من الدَّاخل، وضعت المنظار جانبًا فبدا الرَّأس الذي كُنتُ قريبًا منه حدَّ التَّحدُّث إليه كمن قفز بعيدًا إلى مسافة مُستحيلة الاجتياز.

بدا المُعجب بكورتز مُكتئبًا قليلًا، وبصوتٍ مُتسرِّع مُبهم أخذ يُؤكِّد لي أنه لم يجرؤ على إنزال تلك.. لنقُل الرُّموز.. إلى الأسفل. لم يخف الوطنيون، فلم يكُن من شأنهم أن يتحرَّكوا قبل أن ينطق السَّيِّد كورتز بكلمته. كانت سطوته غير عادية. كانت مُخيَّمات هؤلاء النَّاس مُحيطة بالمكان، وكان الزُّعماء يأتون إليه كل يوم للزِّيارة. كانوا يزحفون... «لا أرغب في معرفة أيِّ شيء عن الطُّقوس التي كانوا يُؤدُّونها لدى الاقتراب من كورتز»، صرختُ قائلًا. غريب هذا الشُّعور الذي ملأني بأن مثل تلك التفاصيل ستكون أكثر ألمًا من الرُّؤوس المُجفَّفة فوق الأوتاد تحت نوافذ السَّيِّد كورتز. فلم يكُن ذلك إلا منظرًا وحشيًّا، في حين بدا لي وكأنني وبقفزة واحدة قد انتقلتُ إلى منطقة مُظلمة من مناطق الرُّعب القاسي، حيث كانت الوحشيَّة الفطريَّة البسيطة راحةً تامَّةً، لكونها شيئًا يستحقُّ الوجود.. بوضوح.. تحت الشَّمس. نظر الشَّابُّ إليَّ بدهشة، وأعتقد أنه لم يخطر له أن كورتز ليس معبودي. نسي أنني لم أستمع إلى أيٍّ من تلك المونولوجات الرَّائعة حول، حول ماذا؟ حول الحُبِّ، والعدل، وسير الحياة، أو غير ذلك. وإذا تحدَّثنا عن الزَّحف أمام السَّيِّد كورتز فقد زحف مثلما زحف أكثرهم وحشيَّةً على الإطلاق. قال إنه لم تكُن لديَّ فكرة عن الظُّروف، كانت تلك رؤوس لمُتمرِّدين، وصدمته بضحكي، مُتمرِّدون؟ تُرى ما

التَّعريف التَّالي الذي سيكون عليَّ أن أسمعه؟ لقد كان هناك الأعداء والمُجرمون والعُمَّال.. وها هم المُتمرِّدون، وبدت لي تلك الرُّؤوس المُتمرِّدة مُستسلمةً فوق أوتادها... «إنك لا تدري كيف أرهقت تلك الحياة رجلًا مثل السَّيِّد كورتز»، صاح تلميذ كورتز الأخير: «حسنًا، وأنت؟»، قُلتُ: «أنا، أنا رجل بسيط ليست لديَّ أفكار عظيمة، ولا أُريد شيئًا من أحد، كيف يمكنك مُقارنتي بـ.....؟»، كانت مشاعره أكبر من أن تمكنه من الحديث، وفجأة انهار: «إنني لا أفهم»، تأوَّه قائلا: «لقد بذلت كل ما أستطيع لإبقائه حيًّا، وهذا يكفي. لم تكُن لي يد في ذلك كله، ليست لديَّ إمكانيَّات. لم تكُن هناك نقطة من الدَّواء أو لُقمة من طعام يُناسب المرضى لأشهُرٍ عديدة هنا. لقد خذل في صورة مُخجلة. رجل مثله، بمثل تلك الأفكار، في صورة مُخجلة، مُخجلة. إنني.. إنني لم أنم أبدًا خلال الأيَّام العشرة الماضية...».

ضاع صوته في هدوء المساء. كانت الظِّلال الطَّويلة للغابة قد انحدرت إلى أسفل التَّلِّ، بينما كُنَّا نتحدَّث، وذهبت بعيدًا وراء الكوخ المُدمَّر، خلف صفِّ الأوتاد الرَّمزي. كان ذلك كله في الظِّلِّ القاتم، بينما كُنَّا هناك في الأسفل لا نزال تحت أشعَّة الشَّمس، وقد التمع امتداد النَّهر المُحاذي للبُقعة الخالية بروعة ساكنة مُبهرة، بانحناءة ضبابيَّة قاتمة من فوقها، ومن تحتها. لم تكُن هناك روح حيَّة واحدة على الضَّفَّة، ولم تصدر الشُّجيرات حفيفًا.

فجأةً، ظهرت مجموعة من الرِّجال يدورون حول زاوية البيت، فبدوا وكأنهم انبثقوا من جوف الأرض. كانوا يخوضون بين الحشائش التي غمرتهم حتى خصورهم مُتعاونين في حمل محفَّة مُرتجلة الصُّنع كانت بينهم. وفي

اللَّحظة نفسها انطلقت صرخة من عُمق المنظر الخالي، اخترق زعيقها الهواء السَّاكن مثل سهم حادٍّ مُتَّجه صوب قلب الأرض، وكما لو كان ذلك بقُوَّة السِّحر، تدفَّقت نحو البُقعة الخالية قُرب الغابة السَّاكنة المُتجهِّمة أنهار من كائنات بشريَّة.. كائنات بشريَّة عارية.. يحملون في أيديهم الحراب والأقواس والدُّروع، بنظراتهم المسعورة وحركاتهم الوحشيَّة. اهتزَّت الشُّجيرات، وتمايلت الحشائش لفترة، ثم هدأ كُلُّ شيءٍ إلى سُكون حذر.

«الآن، إذا لم يقل لهم الحقيقة فإننا لمن الهالكين»، قال الرُّوسي الواقف عند مرفقي. كان جمع الرِّجال الذين يحملون المحفَّة قد توقَّف أيضًا في منتصف الطَّريق إلى الزَّورق كما لو أنهم تحجَّروا. ورأيتُ الرَّجُل النَّائم على المحفَّة ينهض جالسًا بهزاله وبيده المرفوعة عاليًا فوق أكتاف حامليه. قُلتُ: «لنأمل أن يجد الرَّجُل الذي يُجيد الحديث عن الحُبِّ عمومًا أسبابًا خاصَّةً للعفو عنَّا هذه المرَّة»، أحسستُ بالامتعاض بسبب الخطر العبثي المُحيط بنا، كما لو كان وضعنا تحت رحمة ذلك الشَّبح الأثيم ضرورة غير مُشرِّفة. لم أتمكَّن من سماع أيِّ صوت، ولكنني رأيتُ من خلال منظاري تلك الأذرُع النَّحيلة تمتدُّ آمرةً. ورأيتُ الفكَّ السُّفلي يتحرَّك وأعيُن ذلك الطَّيف تلتمع في عتامة رأسه ناتئ العظام الذي كان يهتزُّ بتشنُّج غريب. كورتز.. كورتز.. إن ذلك معناه قصير القامة باللُّغة الألمانيَّة.. أليس كذلك؟ حسنًا، لقد كان ذلك حقيقيًّا مثل أيِّ شيء آخر في حياته.. وموته. بدا طوله سبع أقدام على الأقل. كان غطاؤه قد سقط عنه، فبرزت منه قامته هزيلة مُروِّعة كما لو أنها برزت من كفن. كان في استطاعتي رؤية قفصه الصَّدري المُهتزِّ وعظام ذراعه المُلوِّحة. بدا أشبه بتمثال حي للموت مصنوع من عاج قديم يُلوِّح بيده مُتوعِّدًا

في حشد ساكن من رجال مصنوعين من برونز قاتم لامع. رأيته يفتح فمه واسعًا.. ما أعطاه هيئة نهم مشؤومة. كما لو أنه أراد ابتلاع كل الهواء، كل التُّراب، كل الرِّجال الواقفين أمامه. ووصل إليَّ صوت عميق ضعيف. لا بُدَّ أنه كان يصيح، وفجأةً سقط إلى الخلف، واهتزَّت المحفَّة عندما تمايل الحمَّالون وهم يتقدَّمون مرَّةً أُخرى. وفي الوقت ذاته تقريبًا، لاحظتُ أن حشد المُتوحِّشين يختفي دون أيِّ حركة واضحة للتَّراجُع، كما لو أن الغابة التي كانت قد لفظت تلك الكائنات بمثل هذه المفاجأة قد سحبتهم إليها ثانيةً كما يسحب النَّفس بشهقة طويلة.

كان بعض المُهاجرين الواقفين خلف المحفَّة يحملون أسلحته.. اثنتان من بنادق الصَّيد وبُندقيَّة ثقيلة وأخرى قصيرة.. صواعق ذلك الإله المُثير للشَّفقة. انحنى المُدير عليه مُتمتمًا، بينما كان يمشي مُحاذيًا رأسه. مدَّدوه في إحدى الحُجرات الصَّغيرة.. حجرة تتَّسع لسرير واحد ومقعد خفيف أو اثنين فقط. كُنَّا قد أحضرنا رسائله المُتأخِّرة، وتبعثر فوق سريره عدد من المُغلَّفات المُمزَّقة والرَّسائل المفتوحة، وجالت يده بضعف بين تلك الأوراق. صعقتني نيران عينيه والاسترخاء الهادئ في تعبيراته. لم يكُن ذلك إنهاك المرض؛ إذ لم يبدُ عليه أنه يتألَّم، لقد بدا ذلك الشَّبح مُتخَمًا هادئًا، كما لو كان في تلك اللَّحظة قد حصل على كفايته من العواطف كلها.

خشخشت إحدى الرَّسائل بين يديه، وقال وهو ينظر إلى وجهي مُباشرةً: «إنني سعيد»، كان أحدهم قد كتب له عنِّي، وها هي تلك التَّوصيات الخاصَّة تظهر ثانيةً. أدهشتني نبرة صوته المُرتفعة التي أصدرها من دون جُهد، وحتى

من دون أن يهتمَّ بتحريك شفتيه تقريبًا. صوت. صوت. لقد كان صوتًا محزونًا عميقًا رنَّانًا في حين بدا الرَّجُل غير قادر على الهمس، وعلى أيِّ حال، فقد كان لديه من القُوَّة.. المُتكلِّفة من دون شكٍّ.. ما يُمكنه من الاقتراب من إنهائنا كما سترون.

ظهر المُدير صامتًا على عتبة الباب. خرجتُ على الفور فأغلق السَّتائر خلفي. أمَّا الرُّوسي الذي كان المهاجرون يُراقبونه بفضول، فقد كان يُحَدِّق في الشَّاطئ، واتَّبعتُ اتِّجاه نظرته.

كان بالإمكان تبيُّن أشباح إنسانيَّة في البُعد تتمايل في حدود الغابة المُكفهرَّة، وعند النَّهر وقف شبحان بُرونزيان مُتَّكئين على حربتين طويلتين في ضوء الشَّمس تعلو رأسيهما قُبَّعتان رائعتان من الجلد المُنقَّط، مُستعدَّين للقتال، ولكنَّ السَّكينة تغمرهما. ومن اليمين إلى اليسار وعلى طول الشَّاطئ المُضاء تحرَّك شبح وحشي هائل لامرأة.

سارت بخطواتٍ محسوبةٍ مُتلفِّحةً بثوبٍ مُخطَّطٍ مُهدَّبٍ، تدقُّ بخطواتها الأرض بكبرياء مُحدِثةً صلصلةً خفيفةً وبريقًا من حليها البدائيَّة. شمخت برأسها عاليًا، بشعرها الذي سرح في صورة خوذة. وكانت ترتدي صفًّا من الخلاخيل النُّحاسيَّة وصل حتى الرُّكبة، وعلى ذراعها صفٌّ من الأساور الدَّقيقة النُّحاسيَّة وصل حتى المرفق، وقد زيَّنت خدَّيها الأسمرين المائلين إلى الصُّفرة بُقعتان قُرمزيَّتان، وأحاطت بعُنقها عقود لا تُحصى من الخرز الزُّجاجي. أشياء بازاريَّة، تعاويذ وهدايا سحرة تدلَّت منها كانت تتلألأ وترتجُّ عند كل خطوة. لا بُدَّ أنها كانت ترتدي ما قيمته أنياب عديدة. كانت مُتوحِّشة وفاتنة، مُتوحِّشة العينين

رائعة. كان هناك شيء مهيب مُنذر بالسُّوء في خطوها المُتأنِّي إلى الأمام. وفي الصَّمت الذي حلَّ فجأةً على الأرض الحزينة، بَدَت البرِّيَّة العظيمة، الجسد الهائل للحياة الولود الغامض كأنما ينظر إليها، وهي تتأمَّل كما لو أنها تنظر إلى صورة روحها المشبوبة القاتمة.

مشت بمُحاذاة الزَّورق، ثم وقفت ساكنة في مُواجهتنا، فسقط ظلُّها الطَّويل على حافَّة النَّهر. بَدَت على وجهها سيماء مأساويَّة شرسة لحُزن جامح وألم أبكم ممتزج برُعب آتٍ من قرار مصروع نصف مُكتمل. وقفت تنظر إلينا دون حركة. ومثل البرِّيَّة نفسها، كانت تبدو عليها سيماء اكتئاب بشكل غامض. مرَّت دقيقة كاملة قبل أن تخطو إلى الأمام، فصدر صليل خفيف وومض معدن أصفر، واهتزَّت حُلَّة ذات أهداب، ثم توقَّفت كما لو أن قلبها قد خذلها. تذمَّر الشَّابُّ الواقف بجانبي وتمتم المُهاجرون خلفي. نظرت إلينا جميعًا كما لو أن حياتها مُتوقِّفة على ثبات تلك النَّظرة، وفجأةً فتحت ذراعيها العاريتين ورفعتهما بقُوَّة فوق رأسها كما لو أن ذلك جرى برغبة جامحة للمس السَّماء، وفي الوقت نفسه كانت الظِّلال تنطلق بسُرعة على الأرض وتنساب فوق النَّهر لتحتضن الزَّورق في عناق ظلالي، وخيَّم صمت رهيب على المشهد.

استدارت ببُطءٍ، ومضت بمُحاذاة الضَّفَّة، واستدارت لليسار داخلةً بين الشُّجيرات، ولمرَّة واحدة فقط ارتدَّ لمعان عينيها إلينا من خلال ظُلمة الأجمة قبل أن تختفي.

«لو طلبت الصُّعود إلى ظهر الزَّورق ربما لحاولتُ إطلاق النَّار عليها»، قال الرَّجُل ذو الملابس المُرقَّعة بعصبيَّة.. «لقد كُنتُ أُخاطر بحياتي يوميًّا خلال الأسبوعين الماضيين كي أُبقيها بعيدًا عن المنزل، وفي أحد الأيَّام أفلحت في الدُّخول، وأثارت شجارًا حول تلك الرُّقَع البائسة التي جلبتها من المخزن لأُصلح بها ملابسي. لم أكُن مُهذَّبًا أو على الأقل يبدو أن الأمر كان كذلك لأنها تكلَّمت إلى كورتز بثورة لمدة ساعة كانت تُشير خلالها إليَّ من حين لآخر. أنا لا أفهم لهجة هذه القبيلة، ومن حُسن حظِّي كما أعتقد أن كورتز كان مريضًا إلى حدٍّ لم يُبدِ معه أيُّ اهتمام في ذلك اليوم، وإلا لحدث ما لا تُحمد عُقباه. إنني لا أفهم.. كلَّا.. إن هذا لكثير عليَّ. حسنًا لقد انتهى كُلُّ شيءٍ الآن».

وفي تلك اللَّحظة سمعتُ صوت كورتز العميق يأتي من خلف السِّتارة: «أنقذني.. أنقذ العاج أيُّها الوغد. لا تخبرني. أنقذني. كان عليَّ أن أنقذك.. إنك تعوق خططي الآن، مريض، مريض، لستُ مريضًا إلى الحدِّ الذي تودُّ أن تصدقه، ولا يهم، فسأنقذ أفكاري.. سأعود. سأُريك ما الذي يمكن فعله. أنت بأفكارك التَّافهة.. إنك تتدخَّل في شؤوني. سأعود...».

جاء المُدير، وشرَّفني بأن وضع يده تحت إبطي وانتحى بي جانبًا.. «إنه مُنحطٌّ، مُنحطٌّ جدًّا»، قال. اعتبر المُدير أن من الضَّروري أن يتنهَّد، ولكنه لم يُبالِ بأن يبدو حزينًا باستمرار.. «لقد بذلنا غاية جُهدنا من أجله، أليس كذلك؟ ولكن الحقيقة البادية للعيان هي أن كورتز قد أضرَّ بالشَّركة أكثر ممَّا أفادها. لم يُدرك أن الوقت لم يكُن قد حان بعد للقيام بفعل قوي. بحذر، بحذر.. هذا هو مبدئي. يجب علينا أن نكون حذرين، إن المنطقة مُغلقة دوننا لفترة من

الزَّمَن. إنه لأمر مُؤسف. ستتعرَّض المهنة للمتاعب على الأغلب. إنني لا أُنكر أن هناك كمِّيةً كبيرةً من العاج مُعظمه مُتحجِّر، لكننا يجب أن نُنقذه في جميع الأحوال، ولكن انظر كم إن الوضع خطير.. ولماذا؟ لأن الأسلوب غير سليم»، قُلت وأنا أنظر للشَّاطئ: «أتُسمِّي هذا أسلوبًا غير سليم؟».. «بالتَّأكيد»، قال بحرارة: «ألا ترى ذلك؟».. «لم يكُن هناك أسلوب على الإطلاق»، تمتمتُ بعد قليل.. «بالضَّبط»، قال مُتهلِّلًا: «لقد توقَّعتُ ذلك. إن هذا يدلُّ على نقص تام في القُدرة على الحُكم على الأشياء. إن من واجبي أن أُشير إلى ذلك في الوقت المُناسب»، قُلتُ: «آه، ذلك الشَّخص.. ما اسمه؟ صانع الطُّوب. سيكتب لك تقريرًا جيِّدًا جدًّا».. بدا مُرتبكًا للحظة، خُيِّل لي أنني لم أستنشق هواءً بمثل هذا الفساد من قبل، وانتقلتُ بفكري إلى كورتز طلبًا للرَّاحة.. للرَّاحة حقًّا.. «وعلى الرغم من ذلك كله فإنني أعتقد أن كورتز رجل عظيم»، قُلتُ مُؤكِّدًا. أجفل، وألقى إليَّ بنظرة باردة ثقيلة، وقال بهدوءٍ تامٍّ: «لقد كان كذلك»، وأدار ظهره. وانتهت ساعة الأفضليَّة بالنِّسبة لي، ووجدتُ نفسي أُوضع مع كورتز في خانة أنصار أساليب لم يأتِ أوانها بعد. كُنتُ فاسدًا آه! ولكن كان من الجيِّد أن يكون هناك مجال لاختيار الكابوس على الأقل.

كُنتُ في الواقع قد انتقلتُ إلى البرِّيَّة لا إلى السَّيِّد كورتز الذي كُنتُ على استعداد للاعتراف بأنه لم يكُن أفضل من شخص مدفون. وخُيِّل لي للحظة أنني أنا أيضًا مدفون في قبر فسيح مليء بالأسرار، وشعرتُ بثقلٍ لا يُحتمل يضغط على صدري، رائحة الأرض الرَّطبة، الحضور الخفي للخراب المُنتصر، ظُلمة ليلة صلدة.. ولمس الرُّوسي كتفي، وسمعته يُغمغم. ويُتمتم بشيءٍ حول «أخي البحَّار.. لم أستطع إخفاء المعرفة بأمور من شأنها التَّأثير على

سُمعة كورتز»، انتظرتُ. فبالنِّسبة لي من الواضح أن كورتز لم يكُن في القبر، أظنُّ أن كورتز كان بالنِّسبة إليه أحد الأشياء الخالدة. «حسنًا»، قُلتُ أخيرًا... «تكلَّم عمَّا حدث فأنا كما ترى صديق كورتز.. بطريقة ما».

ذكر لي بكثير من الرَّسميَّة أننا لو لم نكُن (زُملاء مهنة) لاحتفظ بالأمر لنفسه من دون النَّظر إلى العواقب.. «كان يشكُّ في أن هناك ضعفًا تجاهه عند هؤلاء الرِّجال البيض الذين....».. «إنك على حقٍّ»، قُلتُ مُتذكِّرًا حديثًا معينًا كُنتُ قد سمعته.. «يعتقد المُدير أنك تستحقُّ الشَّنق»، وأبدى اهتمامًا بهذه المعلومة التي أمتعتني في البداية... «إن من الأفضل لي الابتعاد عن الطَّريق بهدوء»، قال بجدِّية.. «لم يعُد باستطاعتي عمل شيء من أجل كورتز الآن، وسيجدون ذريعة ما في القريب، ما الذي سيمنعهم؟ هناك موقع عسكري على بُعد ثلاثمائة ميل من هنا»، قُلتُ: «حسنًا، ما أُريد قوله هو أنه ربما كان من الأفضل لك أن ترحل إذا كان لك أيُّ أصدقاء بين المُتوحِّشين في الجوار»... «كثيرون»، أجاب: «إنَّهم قوم بُسطاء، وأنا لا أُريد شيئًا كما تعلم»، ووقف يعضُّ شفته، ثم قال: «لا أُريد أن يلحق بهؤلاء البيض أيُّ أذى، ولكنني كُنتُ بالطَّبع أُفَكِّر بسُمعة كورتز، لكنك أخ بحَّار»... «حسنًا»، قُلتُ بعد فترة: «إن سُمعة كورتز في أمان معي»، ولم أدرِ كم كُنتُ مُحقًّا في قولي.

أخبرني بصوت مُنخفض أن كورتز هو الذي أمر بشنِّ الهجوم على الزَّورق. «كان في بعض الأحيان يكره فكرة أن يُؤخذ بعيدًا.. ثم من جديد.. ولكنني لا أفهم هذه الأمور. إنني رجل بسيط، كان يظن أن ذلك سيُخيفك فترحل.. إنك ستتخلَّى عن الأمر كله ظانًّا أنه قد مات. لم أستطع أن أمنعه. أوه، لقد مررت

بوقت عصيب من جرَّاء ذلك في الشهر الماضي»، قُلتُ: «حسنًا، إنه بخير الآن»، قال مُتمتمًا من دون أن يبدو عليه الاقتناع».. «نننعم»، قُلتُ: «أشكرك، سأفتح عيني جيِّدًا»... «ولكن بهدوء»، قال بقلق: «سيكون سيئًا جدًّا لسُمعته لو أن أحدًا هنا....».

وعدته بكتمان السِّرِّ بوقار كبير.. «لديَّ قارب صغير وثلاثة من السُّود ينتظرونني في مكان غير بعيد من هنا. سأُغادر، هل يمكنك أن تُعطيني بعض الذَّخيرة لبُندقيتي المارتيني هنري؟».

كان ذلك في استطاعتي، وقد فعلته بما يناسبه من السِّرِّيَّة، وخدم نفسه غامزًا بأخذ حفنة من التَّبغ.

«بين البحَّارة.. كما تعلم.. التَّبغ الإنجليزي الجيِّد»، وعند باب حجرة القيادة استدار.. «أعندك زوج من الأحذية يمكنك أن تستغني عنه؟»، ورفع إحدى ساقيه.. «انظر»، كانت قدماه مربوطتين من أسفلهما بخيوط منسوجة على هيئة صندل تحت قدميه العاريتين. وأخرجتُ زوجًا قديمًا نظر إليه بإعجاب قبل أن يدسَّه تحت إبطه الأيسر. كانت إحدى جيوبه فاقعة الحُمرة تنتفخ بالذَّخيرة، ومن الأُخرى غامقة الزُّرقة أطلَّ (بحث تاوسون»، إلخ.. إلخ.

بدا كما لو أنه يعتقد أنه مُستعدٌّ تمامًا لمُواجهة جديدة مع البرِّيَّة.. «آه، لن أُقابل مثل هذا الرَّجُل مرَّةً أُخرى أبدًا. كان يجب أن تسمعه يُلقي شعرًا.. شعره، هو الذي أخبرني بذلك. شِعر..»، وأجال بنظره إلى ذكرى تلك المسرَّات... «آه، لقد وسَّع مداركي»، قُلت له: «الوداع»، وصافحني واختفى

في ظلال اللَّيل. وأسأل نفسي في بعض الأوقات إذا كُنتُ حقًّا قد شاهدته.. إن كان في الإمكان مُقابلة مثل تلك الظَّاهرة.

عندما استيقظتُ بعد منتصف اللَّيل، مرَّ في خاطري تحذير المُوحي بالخطر الذي بدا في ذلك الظَّلام المُرصَّع بالنُّجوم، حقيقيًّا بما فيه الكفاية بحيث جعلني أنهض لأُلقي نظرة حولي. وعلى التَّلِّ كانت نار كبيرة تشتعل مُضيئة الزَّاوية المُنحنية لمبنى المحطَّة. وكان أحد المُوَظَّفين تصحبه مجموعة قليلة العدد من زنوجنا المُسلَّحين لهذا الغرض يقومون بحراسة العاج، ولكنَّ ومضًا أحمرَ كان يتردَّد في عُمق الغابة. بدا هابطًا صاعدًا من الأرض من بين أشكال عموديَّة مُضطربة من السَّواد الكثيف، أظهر الموضع الدَّقيق للمُخيَّم، حيث كان عَبَدَةُ كورتز يقومون بنوبتهم للحراسة المُزعجة. وملأ ضرب رتيب لطبل كبير الجو بهزَّات مكتومة وتردُّد مُتَّصل.

أتى من ناحية الجدار الأسود المُنبسط من الأحراش صوت دندنة مُتَّصلة لكثير من الرِّجال يُغني كل منهم لنفسه تعزيمة مشؤومة مثلما يأتي طنين النَّحل من إحدى الخلايا، وهو ما أضفى على مشاعري نصف المُستيقظة تأثيرًا مُخدِّرًا غريبًا. وأعتقد أن سِنَةً من النَّوم قد أخذتني عندما اتَّكأتُ على الحاجز، إلى أن أيقظني انفجار صراخ فُجائي، انفجار جامح لنوبة سُعار غامضة حبيسة، فنهضتُ مذهولًا محتارًا، وفجأةً انتهى كُلُّ شيءٍ، واستمرَّ الطَّنين المُنخفض بتأثير صمت مسموع يبعث الهدوء. وحانت مِنِّي التفاتة إلى الحجرة الصَّغيرة. كان هناك ضوء في الدَّاخل، لكن السَّيِّد كورتز لم يكُن هناك.

أظنُّ أنني لو صدَّقت عينيَّ لأطلقتُ صرخة مُدوِّية، لكنني لم أُصدِّقهما في البداية.. بدا الأمر مُستحيلًا تمامًا. كُنتُ في الواقع قد فقدتُ أعصابي بسبب خوف خالص وخالٍ. رُعب مُجَرَّد تمامًا لا يمُتُّ بصلةٍ إلى أيِّ شكل مُحدَّد لخطر حقيقي. وكان السَّبب الذي جعل هذه العاطفة طاغيةً إلى هذا الحدِّ.. لا أدري كيف أعرفها؟ هو الصَّدمة الأخلاقيَّة التي تلقَّيتُها، كما لو أن شيئًا وحشيًّا ثقيلًا على العقل كريهًا على الرُّوح قد قُذف عليَّ من دون توقُّع. لم يستغرق ذلك بالطَّبع أكثر من جُزء من الثَّانية. ثم بدا الشُّعور المألوف بالخطر المُميت العادي بإمكان الذَّبح والقتل الفُجائي، أو أيِّ شيء آخر من هذا القبيل، ممَّا رأيتُ أنه يُنذر بالحدوث، مُريحًا ومُرحِّبًا به. لقد أراحني ذلك كثيرًا في الواقع إلى حدٍّ جعلني لا أُعلن حالة الإنذار.

كان هناك مُوَظَّف يرتدي أولستر مُحكمَ الأزرار يغطُّ في النَّوم فوق كرسي على ظهر الزَّورق يبعد عنِّي ثلاث أقدام. لم تكُن الصَّرخات قد أيقظته، فظلَّ يُصدر شخيرًا خفيفًا، تركته لنومه وقفزتُ في اتِّجاه الشَّاطئ. لم أَخُن السَّيِّد كورتز.. كانت الأوامر ألا أخونه أبدًا.. فقد كُتب عليَّ أن أبقى مُخلصًا لكابوسٍ اخترته. كُنتُ أتوقُ إلى التَّعامُل مع هذا الظِّلِّ وحيدًا.. وحتى اليوم لا أدري لماذا كُنتُ أشعر بالغيرة من مُشاركة أيِّ شخص لي في ذلك السَّواد الشَّاذِّ لهذه التِّجربة.

عندما وصلتُ إلى الضَّفَّة، شاهدتُ ممرًّا.. ممرًّا عريضًا يخترق الحشائش، وما أزال أذكر ما قُلته لنفسي: «إنه لا يستطيع المشي.. إنه يزحف على أربع.. لقد نلت منه». كانت الأعشاب مُبلَّلةً بالنَّدى. مضيتُ سريعًا بقبضتين

مُطبقتين. وأعتقد أنه كانت لديَّ فكرة غامضة حول مُهاجمته والنَّيْل منه. لا أدري. كانت تُراودني أفكار حمقاء. واقتحمت النَّسَّاجة العجوز صاحبة القِطَّة ذاكرتي كنقيضٍ لمن يمكن أن يكون في الطَّرف المُقابل لمثل هذه الحالة. ورأيتُ صفًّا من المُهاجرين يُطلقون النَّار في الهواء من بنادق الونشستر التي أسندوها على أفخاذهم. وظننتُ أنني لن أرجع إلى الزَّورق ثانيةً، وتخيَّلتُ نفسي أحيا وحيدًا أعزلَ في الغابات حتى سِنٍّ مُتقدِّمة. أشياء سخيفة.. تعرفون، وأذكر أن ضربات الطَّبل اختلطت بدقَّات قلبي، وأنني سعدتُ لانتظامها الهادئ.

مشيتُ مع الممرِّ، ثم توقَّفت مُصغيًا. كانت اللَّيلة صافيةً تمامًا.. فراغٌ أزرقُ مُعتمٌ يتلألأ بالنَّدى والنُّجوم. وقفت فيها أشياء سوداء ساكنة تمامًا، وظننتُ أنني رأيتُ شيئًا يتحرَّك أمامي، ومن الغريب أنني كُنتُ زائدَ الثِّقة بكل شيء في تلك اللَّيلة. كُنتُ قد تركتُ الممرَّ، وركضتُ في نصف دائرة واسعة (ضاحكًا بيني وبين نفسي كما أعتقد)، لكي أسبق ذلك الشَّيء المُتحرِّك، تلك الحركة التي رأيتها.. إذا كُنتُ رأيتُ شيئًا بالفعل.. كُنتُ أطوق كورتز كما لو كانت تلك لُعبة صِبية.

ظفرتُ به، ولو لم يسمعني آتيًا إليه، لانقضضتُ عليه، لكنه نهض في الوقت المُناسب. نهض بقامته الشَّاحبة المُتقلقلة غير واضحة المعالم، مثل بُخار نفثته الأرض، وتمايل قليلًا أمامي صامتًا ضبابيَّ الهيئة، وخلفي بَدَت ذوائب النِّيران بين الأشجار، وأتت همهمة أصوات كثيرة من الغابة. لقد استطعتُ عزله ببراعة، ولكني عُدتُ إلى وعيي عندما أصبحتُ في مُواجهته،

رأيتُ الخطر بحجمه الحقيقي. لم يكُن كُلُّ شيءٍ قد انتهى. لنفترض أنه بدأ في الصُّراخ؟ فعلى الرغم من أنه كان لا يكاد يستطيع الوقوف، فإن قُوَّة كبيرة كانت لا تزال في صوته. «اغرُب عنِّي... اختبئ»، قال بذلك الصَّوت العميق. كان ذلك مُرعبًا. نظرتُ خلفي. كُنَّا لا نبعد أكثر من ثلاثين ياردة عن أقرب نار مشبوبة، ونهض شبح أسود، وسار على ساقين سوداوين طويلتين مُلوِّحًا بذراعين سوداوين آتيًا عبر الوهج. كانت له قرون.. قرون ظبي كما أعتقد.. فوق رأسه. لا شكَّ أنه كان أحد المُشعوذين أو السَّحَرة، فقد بدا شيطانيًّا بما فيه الكفاية.. «أتدري ما الذي تفعله؟»، همستُ «تمامًا»، أجاب رافعًا صوته بهذه الكلمة الواحدة، بَدَت لي بعيدة، ولكن عالية مثل هتاف آتٍ من بوقٍ. وفكَّرتُ: «إذا افتعل شجارًا فإننا سنضيع بلا شكٍّ»، من الواضح أن ذلك الوضع لم يكُن مُناسبًا للشِّجار، وحتى بمعزلٍ عن الكراهية الطَّبيعيَّة التي أُكِنُّها لذلك، فقد كان عليَّ التَّغلُّب على ذلك الظِّلِّ.. ذلك الشَّيء المُعذَّب التَّائه.. «لقد قُضي عليك.. قُضي عليك بلا شكٍّ»، صحتُ قائلًا. يحدُث أحيانًا أن يلمع الذِّهن بإيحاء ما كما تعلمون. لقد قُلتُ الشَّيء المُناسب على الرغم من أنه لم يكُن أبدًا ضائعًا تمامًا بحيث لا يمكن استرداده كما كان في تلك اللَّحظة، عندما كانت أُسُس مودَّتنا تُوضع.. لتدوم.. لتدوم.. حتى النِّهاية.. وحتى ما بعد النِّهاية.

«كانت لديَّ خُطط عظيمة»، تمتم بتردُّد.. «نعم»، قُلتُ.. «ولكن إذا حاولت الصُّراخ فسأحكم رأسك بـ...»، لم تكُن هناك عصا، أو حجر في الجوار.. «سأخمد أنفاسك إلى الأبد»، قُلتُ مُصحِّحًا نفسي... «لقد كُنتُ على أعتاب أمور عظيمة»، قال راجيًا بصوت مُتشوِّق، بلهجة حزينة أجرت الدَّم باردًا في

عُروقي... «والآن، من أجل هذا الوغد الأحمق...»... «إن نجاحك في أوروبا مُؤكَّد على أيِّ حال»، أكَّدتُ له بحزم. لم أكُن أرغب في إخماد أنفاسه فعلًا. تفهمون.. ومن المُؤكَّد أنه لن تكون لذلك سوى فائدة ضئيلة بحسب أيِّ تفكير عملي. وحاولتُ أن أكسر التَّعويذة.. تعويذة البرِّيَّة الثَّقيلة البكماء، التي بَدَت وكأنها تجذبه إلى صدرها القاسي بإيقاظ الغرائز الوحشيَّة المنسيَّة، بذكرى الرَّغبات الوحشيَّة المُشبعة. كان هذا فقط كما كُنتُ مُقتنعًا، هو الذي مضى به إلى طرف الغابة. إلى الأجمة، نحو وهج النِّيران وقرع الطُّبول وطنين تعازيم الشُّؤم، هذا فقط هو الذي أغوى روحه المُتمرِّدة إلى ما وراء الطُّموحات المشروعة. أفلا ترون أن المُرعب في الوضع لم يكُن تلقِّيه ضربةً على الرَّأس.. على الرغم من شعور حيوي راودني بهذا الخطر أيضًا.. بل إنه كان عليَّ أن أتعامل مع كائن لا أستطيع مُناشدته باسم أيِّ شيء ساميًا أو وضيعًا. كان عليَّ أن أتضرَّع إليه مثل الزُّنوج، إليه نفسه، إلى وضاعته العصيَّة على التَّصديق. لم يكُن هناك شيء فوقه أو تحته، وكُنتُ أعرف ذلك. لقد أطلق نفسه في أرجاء الأرض. اللَّعنة على ذلك الرَّجُل! لقد مزَّق الأرض شَرَّ مُمزَّق. كان وحيدًا، وكُنتُ أمامه لا أدري ما إذا كُنتُ واقفًا على الأرض أو مُحلِّقًا في الفضاء. إنني أُخبركم بما كُنَّا نقول.. أُكرِّر العبارات التي تفوَّهنا بها.. ولكن ما الفائدة؟ كانت تلك كلمات يوميَّة عاديَّة.. الأصوات المألوفة المُبهمة التي نستخدمها كل يوم في حياتنا. ولكن ماذا عن ذلك؟ لقد كان وراءها، كما رأيت، الإيحاء المُرعب بكلمات تُسمع في الأحلام، لعبارات تُسمع في الكوابيس. الرُّوح! إذا حدث وتصارع رجل مع روح فأنا ذلك الرَّجُل، كما أنني لم أكُن أتشاجر مع مجنون. ولكُم أن تصدِّقوني أو لا، فقد كان من الواضح أن ذكاءه،

وإن كان حقًّا يتركَّز حول نفسه بصورة رهيبة، إلا أنه كان جليًّا، وهنا كانت فُرصتي الوحيدة.. وهي بالطَّبع حمايته من القتل في ذلك الوقت، وذلك المكان؛ إذ لم يكُن ذلك مُناسبًا بسبب الضَّجَّة التي لا يمكن اجتنابها، لكنَّ روحه كانت قد جُنَّت، فلكونها وحيدةً في البرِّيَّة نظرت إلى داخل نفسها وجُنَّت. جُنَّت أقول لكم. كان عليَّ.. بسبب خطاياي كما أعتقد.. أن أُجرِّب عذاب النَّظر في داخلها بنفسي. لم يكُن لأيِّ بلاغة أن تكون أكثر تدميرًا لإيماننا بالجنس البشري مثل زفرة الصِّدق الأخيرة. لقد حاول مع نفسه جاهدًا هو أيضًا، وأنا رأيتُها.. سمعتُها.. رأيتُ الغموض العصيَّ على الإدراك لروح لم تعرف حدودًا أو إيمانًا أو خوفًا، لكنها تُجاهد نفسها على غير هُدى. بقيتُ مُتماسكًا، لكنني عندما مددته على الأريكة أخيرًا، مسحت جبهتي بينما اهتزَّت قدماي تحتي كما لو أنني قد حملتُ نصف طن على ظهري ونزلتُ به ذلك التَّلَّ. لم أكُن قد قُمتُ بأكثر من إسناده، فأطبقتُ ذراعه العظميَّة حول عُنقي، ولم يكُن أثقل وزنًا من طفل.

عندما غادرنا في ظهيرة اليوم التَّالي تدفَّق الحشد، الذي كُنتُ طوال الوقت مُدركًا لوجوده خلف السِّتارة الشَّجريَّة، مرَّةً أُخرى من بين الأشجار، وملأ البُقعة الخالية، وغطَّى المُنحدر بكُتلة من الأجساد العارية اللَّاهثة المُرتجفة البُرونزيَّة. زِدتُ سُرعة الزَّورق قليلًا، ثم استدرت مُتَّجِهًا مع المجرى، بينما كان ألفان من الأعيُن تُتابع ازدياد طشطشة الماء وضربات المُحرِّك. شيطان النَّهر الوحشي يضرب الماء بذيله المُرعب وينفث الدُّخان الأسود في الهواء. وفي مُقدِّمة الصَّفِّ الأوَّل المُحاذي للنَّهر، كان هناك ثلاثة رجال يكسوهم التُّراب الأحمر اللَّامع من رُؤوسهم حتى أخماص أقدامهم،

يختالون رائحين غادين بلا توقُّف. وعندما حاذيناهم مرَّةً أُخرى كانوا يُواجهون النَّهر ضاربين الأرض بأقدامهم يهزُّون رُؤوسهم ذات القُرون مُتمايلين بأجسامهم القُرمزيَّة، كانوا يهزُّون في وجه شيطان النَّهر الوحشي حزمة من الرِّيش الأسود، وجلد بالٍ بذيلٍ مُدلًّى.. شيء بدا مثل قرعة مُجفَّفة، كانوا يُطلقون بين فترةٍ وأُخرى سُيولًا من الكلمات العجيبة التي لم تكُن تُشبه أيَّ لُغةٍ بشريَّة، ثم تنقطع غمغمات الجمع العميقة فجأةً، كما لو أنها استجابات لابتهال شيطاني.

كُنَّا قد حملنا كورتز إلى حُجرة القيادة، كان هناك هواء أكثر. ومن على الأريكة التي استلقى عليها كان يُحملق من خلال المصراع المفتوح. دخلت كُتلة الأجساد البشريَّة في دوَّامة، وهُرعت المرأة ذات الخوذة والخدَّين المائلين إلى الصُّفرة نحو حافَّة المجرى، ومدَّت ذراعيها وصرخت، فردَّد الجمع المُتوحِّش الصَّرخة بهدير من الألفاظ الواضحة السَّريعة اللَّاهثة.

«أتفهم ذلك؟»، سألته. استمرَّ في النَّظر للخارج غير مُهتمٍّ بي بعينين ناريَّتين توَّاقتين امتزجت فيهما تعبيرات الحُزن والكراهية. لم يُجِب، لكنني لمحتُ ابتسامة.. ابتسامة مُبهمة ترتسم على شفتيه الشَّاحبتين اللَّتين ارتعشتا بتشنُّج بعد لحظة... «ألا أفهمه؟»، قال ببُطءٍ وهو يلهث كما لو أن الكلمات الخارجة من فمه قد تمزَّقت بفعل قُوَّةٍ خارقةٍ.

سحبتُ حبل الصَّافرة. فعلتُ ذلك لأنني رأيتُ المُهاجرين الذين هم على ظهر السَّفينة يُخرجون بنادقهم وكأنهم استشعروا لهوًا مُبهجًا. وعند الصَّفرة الأوَّلى اخترقت حركة رُعب يائس كتلة الأجسام تلك... «كلَّا، لا تُرعبهم»،

صرخ شخص على ظهر الزَّورق بصوت ينفطر حُزنًا، وسحبتُ الحبل مرَّةً بعد أُخرى، فتشتَّتوا راكضين أو قافزين أو جاثين بتذلُّل. انعطفوا وراوغوا رُعب الصَّوت المُحلِّق. كان الرِّجال الحُمر الثَّلاثة قد سقطوا على الشَّاطئ بوجوههم لأسفل كما لو كان ذلك بفعل الرَّصاص، وحدها المرأة المُتوحِّشة الرَّائعة لم تجفُل، مدَّت ذراعيها العاريتين بألم خلفنا عبر النَّهر الدَّاكن المُتلألئ.

بعد ذلك، بدأ الحشد الغبي فوق ظهر الزَّورق لهوه التَّافه، ولم أستطع أن أرى أكثر من ذلك بسبب الدُّخان.

جرى الماء البُنِّي سريعًا مُنبثقًا من قلب الظَّلام، مُتَّجِهًا بنا إلى الأسفل نحو البحر بسُرعة تبلغ ضعف سُرعة صعودنا، وحياة كورتز هي الأُخرى كانت تمضي بسُرعة. كانت تنحسر.. تنحسر عن قلبه ماضيةً نحو بحر الزَّمَن الذي لا يرحم. كان المُدير مُتماسكًا، فليست لديه الآن أيُّ مخاوف حقيقيَّة، وشملنا نحن الاثنين بنظرة رضا واسعة. لقد انتهت (القضيَّة) على خير ما يمكن أن يُشتهى. ورأيتُ الوقت الذي سأُترَكُ فيه وحيدًا بعيدًا عن (الأسلوب الفاسد) يقترب. ونظر الحاجُّ إليَّ بقلقٍ. كُنتُ في عداد الأموات إذا جاز التَّعبير. غريب كيف أنني قبلت تلك الشَّراكة غير المُتوقَّعة، خيار الكوابيس ذاك الذي فُرض عليَّ في تلك الأرض القاتمة. تنتهكه تلك الأشباح الشَّرهة الدَّنيئة.

تكلَّم كورتز. صوت! صوت! تردَّد عميقًا في الأغوار. بقي بعد ذهاب قُوَّته ليُخبئ في ثنايا بلاغته العظيمة ظُلمةَ قلبه القاحلة. لقد جاهد وجاهد، والآن سكنت بقايا عقله البالي صور ظلاليَّة.. صور الثَّروة والشُّهرة تحول الآن بتذلُّل

حول موهبته التي لا يمكن إخمادها في التَّعبير النَّبيل المُترفِّع. خطيبتي، محطَّتي، مهنتي، أفكاري.. كانت تلك مواضيع خطبه التي يُطلقها بين حين وآخر حول المشاعر الرَّفيعة. كان ظلُّ كورتز الأصلي يتردَّد حول سرير كورتز الزَّائف الخاوي، الذي كان مصيره الآن أن يُدفن في ثَرَى تلك الأرض البدائيَّة، لكنَّ الحُبَّ الجهنَّمي والكراهية العمياء للأسرار التي كان قد اخترقها جاهدًا من أجل امتلاك تلك الرُّوح المُتخَمَة بالعواطف البدائيَّة، التَّوَّاقة للشُّهرة الكاذبة والتَّميُّز الزَّائف، وكل مظاهر النَّجاح والقُوَّة.

كان في بعض الأحيان طفوليًّا في صورة تُثير الازدراء. كان يرغب في أن يُقابله المُلوك عند محطَّة السِّكَّة الحديد لدى عودته من مجهولٍ مُروِّع، حيث كان ينوي إنجاز أشياءَ عظيمة.. «أرِهِمْ أن هناك شيئًا مُربحًا فيك، وبعد ذلك لن تكون هناك حدود للاعتراف بكفاءتك»، كان يقول: «ويجب عليك بالطَّبع أن تحافظ على الدَّوافع.. الدَّوافع السَّليمة.. دائمًا».

كانت الامتدادات الطَّويلة التي بَدَت وكأنها واحدة، والانحناءات الرَّتيبة المُتماثلة تنزلق من جانبي الزَّورق من عالم آخرَ رائد في التَّغيير والغزو والتِّجارة والمذابح والتَّبريكات. نظرتُ إلى الأمام مُوجِّهًا الزَّورق.. «أغلق المصراع»، قال كورتز فجأةً في أحد الأيام.. «إنني لا أحتمل النَّظر إلى ذلك»، فعلتُ، وكان هناك صمت.. «آه، ولكنني سأعتصر قلبك بعد»، صرخ في البرِّيَّة غير المنظورة.

أصاب الزَّورق عُطل.. كما كُنتُ قد توقَّعتُ، وكان عليَّ أن أتوقَّف عند رأس إحدى الجُزُر لإصلاح العُطل. كان ذلك التَّأخير هو أوَّل ما هَزَّ من ثقة كورتز.

ذات صباح قدَّم لي علبة من الأوراق وصورة، كانت كلها مربوطة برباط حذاء.. «احتفظ لي بها»، قال: «فمن المُمكن أن يتطفَّل ذلك الأحمق الجبان.. يقصد المُدير.. على صناديقي وأنا لاهٍ».

رأيتُه عصرًا. كان مُستلقيًا على ظهره بعينين مُغمضتين، فانسحبتُ بهدوء، لكنني سمعته يُتمتم: «عِشْ باستقامة، مُت، مُت....»، وأصغيتُ. لم يكُن هناك من مزيد. أكان يتدرَّب على إلقاء خطبة في منامه، أم كان ذلك جُزءًا من جُملة من مقالة في إحدى الصُّحُف؟ كان يكتب في الصُّحُف، وكان ينوي أن يفعل ذلك من جديد.. «لتعزيز أفكاري. إن هذا لواجب...».

كان ظلامه صلدًا لا يمكن اختراقه. نظرتُ إليه كمن يُطلُّ على رجلٍ مُستلقٍ في قاع جرفٍ لا تصل إليه أشعَّة الشَّمس أبدًا، ولكن لم يكُن لديَّ كثير من الوقت له، فقد كُنتُ أُساعد السَّائق في تفكيك أجزاء المُحرِّك المعطوبة، أو تصحيح قضيبٍ مثنيٍّ، أو أشياء أُخرى من هذا القبيل. كُنتُ أعيشُ في فوضى جهنَّمية من الصَّدأ والبرادة والصَّواميل والمزاليج والمفاتيح والمطارق والمثاقب.. أشياء كُنتُ أكرهها لأني لم أكُن أنسجم معها. كُنتُ أتولَّى أمر الكير الصَّغير الذي كان معنا على ظهر الزَّورق لحُسن الحظِّ، كُنتُ أُجاهد في أكوام من الخُردة البالية.. عندما لا تكون الاهتزازات من القُوَّة بحيث لا أستطيع احتمالها.

في إحدى الأُمسيات، وبينما كُنتُ أدخل بشمعة في يدي، أجفلتُ عندما سمعته يقول بصوتٍ مُرتجفٍ: «إنني أرقد هنا في هذا الظَّلام أنتظر الموت».

كان الضَّوء على بُعد قدم واحدة من عينيه. وأجبرتُ نفسي على أن أُتمتم: «آه، هُراء»، ثم وقفتُ مُتسمِّرًا.

لم أَرَ من قبل شيئًا يُشبه ذلك التَّغيُّر الذي طرأ على ملامحه، وأتمنَّى ألَّا أراه مرَّةً أُخرى. لم أتأثَّر، لقد سُحرتُ. كان ذلك أشبه بغلالة تنشقُّ عنه، ورأيتُ على ذلك الوجه العاجي تعبيرات الكبرياء القاتمة، والقُوَّة الغاشمة، والرُّعب المذعور.. تعبيرات يأس شديد لا شفاء منه. أتراه قد عاش حياته ثانيةً بكل تفاصيل الرَّغبة والغواية والاستسلام خلال تلك اللَّحظة السَّامية من المعرفة الكُلِّيَّة؟ صرخ هامسًا إلى صورة، إلى طيف.. صاح مرَّتين، صيحةً لم تكُن أكثر من زفرة.

«الرُّعب... الرُّعب!».

أطفأتُ الشَّمعة، وغادرتُ الحُجرة. كان المُهاجرون يتناولون العشاء في غُرفة الطَّعام، واتَّخذتُ مكانًا لي مُقابل المُدير، الذي رفع عينيه بنظرةٍ مُتساءلةٍ نجحتُ في تجاهُلها. أسند ظهره إلى الخلف، وجلس ساكنًا بتلك الابتسامة الغريبة التي يختم بها على أغوار دناءته غير المُعلنة، وتدفَّق سيل لا ينقطع من الذُّباب الصَّغير نحو المصباح، فالملابس، فأيدينا ووجوهنا. وفجأةً، وقف خادم المُدير برأسه الأسود المُتغطرس في عتبة الباب، وقال بلهجة ازدراء مريرة: «السَّيِّد كورتز، هو مات».

وهُرِعَ المُهاجرون خارجين ليُشاهدوا، وبقيتُ أنا، وأكملتُ عشائي. وأعتقد أنني اعتُبرتُ قاسيًا بوحشيَّة، إلا أنني لم آكل كثيرًا. كان هناك مصباح -ضوء تعرفون- وفي الخارج كان هناك ظلام وحشي، وحشي. لم أقترب بعدها من

ذلك الرَّجُل العظيم الذي كان قد أصدر حُكمًا على مُغامرات رُوحه في تلك الأرض. ذهب الصَّوت، فماذا تبقَّى بعد؟ لكنني أعلم بالطَّبع أن المُهاجرين قد دفنوا شيئًا في حُفرة مُوحلة في اليوم التَّالي.

وبعد ذلك كادوا يدفنونني، ولكن كما ترون، فإنني لم ألحق بكورتز هناك، وفي ذلك الوقت، لم أفعل، بل بقيتُ لأرى الكابوس حتى النِّهاية، ولأُظهر إخلاصي لكورتز مرَّةً أُخرى. القدر، قدري! مُضحكة هي الحياة.. تلك المنظومة الغامضة من المنطق الذي لا يرحم لهدف عبثي. وأكثر ما يمكن أن تأمل منها هو بعض معرفة بنفسك.. تأتي بعد فوات الأوان.. محصول ندم لا تُخمده ناره، لقد صارعتُ الموت. إنه أقل الصِّراعات التي يمكن تصوُّرها إثارةً. إنه يحدث من دون جمهور أو ضوضاء أو مجدٍ، ومن دون رغبة جامحة في الانتصار، من دون الخوف الكبير من الهزيمة في جوٍّ مريضٍ من الشَّكِّ الفاتر. ومن دون كثير من الإيمان بحقِّك الخاصِّ، وبدرجة أقل بحقِّ خصمك، وإن كان ذلك هو شكل الحكمة الأسمى فالحياة إذن لُغز أكبر ممَّا يعتقده بعضنا. كُنتُ قيدَ شعرةٍ من الفُرصة الأخيرة للإقرار، فاكتشفتُ بمهانة أنه ربما لن يكون لديَّ شيء لأقوله؛ ولهذا فإنني أُؤكِّد أن كورتز كان رجُلًا عظيمًا. لقد كان لديه شيء يقوله، وقد قاله. ولأنني كُنتُ قد أشرفتُ على الهُوَّة بنفسي، فإنني أفهم بصورةٍ أفضل معنى نظرته المُحدقة، التي لم تستطع رؤية لهب الشَّمعة، ولكنها كانت من السَّعة بحيث تحتضن الكون كله، ومن النَّفاذ بحيث تخترق كل القلوب التي تخفق في الظَّلام. لقد أعلن خلاصه.. قام بإصدار حُكم... «الرُّعب!». كان رجُلًا عظيمًا. وفي النِّهاية فقد كان ذلك تعبيرًا عن نوع من الإيمان، كان فيه الصِّدق، وفيه القناعة، وفي الهمس به، كان لمح الثَّورة

النَّابض، وفيه بدا الوجه المُروِّع لحقيقة شُوهدت لمح البصر، ذلك المزيج الغريب من الشَّهوة والحقد. لم تكُن تلك محنتي كما أذكر جيِّدًا.. رُؤية رماديَّة لا كيان لها يملؤها ألم جسدي، وازدراء لا مُباليَ لاضمحلال الأشياء جميعًا، لذلك الألم نفسه. كلَّا! يبدو أنني عشتُ محنته هو. حقًّا، إنه قام بتلك الخطوة الأخيرة، كان قد خطا من فوق تلك الهُوَّة، بينما أُتيح لي أن أسحب قدمي المُتردِّدة. ربما هنا فقط يكمُن كل الفرق، ربما تكتَّلت كل الحكمة وكل الحقيقة وكل الإخلاص في تلك البُرهة من الزَّمَن التي نعبر فيها عتبة ما لا يُرى. ربما! وأحب أن أعتقد أن تلخيصي كان حريًّا بألا يكون كلمة ازدراء لا مُباليَ، فصرخته أفضل.. أفضل بكثير. كانت تأكيدًا، نصرًا أخلاقيًّا مدفوع الثَّمن، هزائم لا تُحصى، ورعبًا واكتفاءً كريهين، لكنها كانت نصرًا؛ ولهذا فقد بقيتُ مُخلصًا لكورتز حتى النِّهاية، وحتى إلى ما بعدها. عندما سمعتُ ثانيةً بعد وقت طويل، ليس صوته هو، بل صدى بلاغته العظيمة مدفوعة باتِّجاهي من روح في صفاء وشفافية جرف من الكريستال.

لا، لم يدفنوني، على الرغم من أن هناك فترةً من الزَّمَن أتذكَّرها بصورة ضبابيَّة، وفي حيرة مُروِّعة، مثل طريق يشقُّ عالمًا غامضًا لا أمل فيه، ولا رغبة. وجدتُ نفسي مرَّةً أُخرى في المدينة الضَّريحيَّة يُغيظني منظر النَّاس الذين يعدُّون الخُطى لتحصيل بعض المال من بعضهم البعض، لالتهام أطعمتهم الرَّديئة، لتجرُّع بيرتهم الكريهة، ولرؤية أحلامهم التَّافهة السَّخيفة. لقد اقتحموا أفكاري. كانوا دُخلاء. لم تكُن معرفتهم بالحياة بالنِّسبة لي غير ادِّعاء يُثير السُّخط، لأنني كُنتُ متأكِّدًا من جهلهم بالأشياء التي أعرفها. وكان مشيهم الذي يُشبه مشي الأفراد العاديين الذَّاهبين إلى أعمالهم بثقةٍ وأمانٍ

مُسيئًا لي مثل الخُيلاء المُثير للسُّخط، الطَّيش في وجه الخطر هو أعجز من أن يستوعبه. لم تكُن لديَّ أقل رغبة في تنويرهم، ولكنني عانيتُ من بعض الصُّعوبة في منع نفسي من الضَّحك في وجوههم التي تفيض أهَمِّيَّةً حَمقاءَ. أعتقد أنني لم أكُن في حالة جيِّدة في ذلك الوقت. تجوَّلتُ في الشَّوارع.. كان لديَّ كثير من المسائل لتسويتها.. أبتسم بمرارة في وجوه أشخاص مُحترمين جدًّا. وأعترف بأن سُلوكي لم يكُن مُبرَّرًا، ولكنَّ درجة حرارتي نادرًا ما كانت طبيعيَّةً في تلك الأيَّام. وَبَدَت كل مُحاولات خالتي العزيزة لمُعالجة قُواي غير ذات جدوى. فلم تكُن قُواي هي التي تحتاج إلى علاج، بل إن خيالاتي هي التي كانت في حاجة إلى تهدئة. احتفظتُ برُزمة الأوراق التي أعطاها لي كورتز، من دون أن أعرف ما الذي سأفعله بها بالضَّبط. كانت أُمُّه قد ماتت مُؤخَّرًا، وكانت خطيبته هي التي تعهَّدتها بالرِّعاية كما علمتُ. ذات يوم زارني رجل حليق ذو مظهر رسمي كان يضع نظَّارة ذات إطار ذهبي، وطرح عليَّ بعض الأسئلة بصورة غير مُباشرة في البداية، ثم في صورة مُهذَّبة في ضغطها بعد ذلك، حول ما سَرَّهُ أن يُسمِّيه بعض (الوثائق). لم أندهش؛ لأن مُشاجرتين سبق أن وقعتا بيني وبين المُدير حول هذا الموضوع. وقد رفضتُ أن أُسلِّم أيَّ قطعة من تلك الرُّزمة، وهو نفسه ما فعلته مع الرَّجُل ذي النَّظَّارة. وفي النِّهاية أخذ يتوعَّد غاضبًا، وبكثير من الحماسة قال إن للشَّركة الحقَّ في الحصول على أيِّ معلومات حول (مناطقها)، وقال: «إن معرفة السَّيِّد كورتز بمناطق مجهولة لا بُدَّ أنها كانت بالضَّرورة واسعة ونادرة؛ بسبب قُدراته الهائلة، ومن الظُّروف البائسة التي وُضع فيها لذلك....»، أكَّدتُ له أنه بغضِّ النَّظر عن المدى الواسع لمعرفة السَّيِّد كورتز فإنها لا تشمل مسائلَ التِّجارة

أو الإدارة. وعندها تذرَّع بالعلم... «ستكون خسارة كبيرة لو أن....»، إلخ.. وقدَّمتُ له التَّقرير حول (إنهاء الأعراف المُتوحِّشة) الذي مزَّقت منه الحاشية. رفعه بشغف، لكنه انتهى بأن نفخ فيه بازدراء... «ليس هذا ما كُنَّا نتوقَّعه»، قال مُعلِّقًا: «لا تتوقَّع شيئًا آخرَ» قُلتُ.. «ليس هناك من شيء سوى رسائل شخصيَّة». انسحب وهو يُهدِّد بدعوى قضائيَّة، ولم أَرَهُ بعد ذلك، لكنَّ شخصًا آخرَ ادَّعى أنه ابن عَمِّ كورتز، جاءني بعد ذلك بيومين، وكان مُتلهِّفًا على سماع تفاصيل لحظات قَربِهِ الأخيرة. وحدث أن أفهمني أن كورتز كان في الأساس موسيقيًّا عظيمًا... «كان نجاحٌ عظيمٌ يلوح له في الأُفُق»، قال الرَّجُل الذي كان عازفَ أرغن على ما أعتقد، بشعره الطَّويل الأشيب المُنسدل فوق ياقة معطف قذرة. ولم يكُن لديَّ أيُّ أسباب لأشُكَّ فيما قاله، وحتى هذا اليوم ليس في استطاعتي معرفة حرفة كورتز، إذا كانت لديه أيُّ حرفة.. وكانت تلك أعظم مواهبه. كُنتُ قد ظننته رسَّامًا يكتب للصُّحُف أو صحفيًّا كان يستطيع الرَّسم، ولكن حتى ابن العَمِّ ذاك (الذي كان يستنشق النشوق خلال المُقابلة) لم يستطع أن يُخبرني بما كانه بالضَّبط. لقد كان عبقريًّا كونيًّا، وقد اتَّفقت على هذه النقطة مع ذلك العجوز، الذي تمخَّط عند ذلك مُحدثًا ضجيجًا في منديل قُطني كبير، وانسحب في هياج خرف حاملًا بعض الرَّسائل العائليَّة ومُذكِّرةً لا أهَمِّيَّة لها، وفي النِّهاية أتى أحد الصَّحفيين مُتلهِّفًا على معرفة شيء عن مصير (زميله العزيز)، أخبرني ذلك الزَّائر أن عالم كورتز الحقيقي لا بُدَّ أنه كان السِّياسة (في الجانب المُتمتع بالشَّعبيَّة) كان له حاجبان مُستقيمان وشعرٌ كثٌّ مقصوص ونظَّارة أُحاديَّة العدسة بوشاحٍ عريضٍ، وما إن زال عنه التَّحفُّظ حتى اعترف بأن كورتز لم يكُن يعرف الكتابة في

الواقع... «ولكن بحقِّ السَّماء ما أعجب قُدرته على الحديث. لقد شحن بالتَّوتُّر كثيرًا من الاجتماعات الحاشدة. لقد كان لديه الإيمان.. ألا ترى ذلك؟ كان لديه الإيمان. وكان في إمكانه إقناع نفسه بأيِّ شيء؛ أيِّ شيء. كان في إمكانه أن يكون قائدًا عظيمًا لحزب مُتطرِّف»... «أيُّ حزبٍ؟»، سألته: «أيُّ حزبٍ»، أجاب الآخر: «لقد كان مُتطرِّفًا».. «ألم تعتقد ذلك؟»، فوافقتُ مُصدِّقًا، وبلمحة فضول سأل عمَّا إذا كُنتُ أعرف ما أغراه بالذَّهاب إلى هناك؟ «نعم»، قُلتُ، وقُمتُ بتسليمه التَّقرير الشَّهير لينشره إذا رأى ذلك مُناسبًا. تصفَّحه بسُرعةٍ، وهو يُتمتم طوال الوقت، ثم أصدر حُكمه: «سيكون ذلك نافعًا»، ومضى يحمل تلك الغنيمة.

وهكذا، لم يبقَ لديَّ أخيرًا سوى علبة صغيرة من الرَّسائل، وصورة الفتاة، لقد أذهلني جمالها.. أعني تعبيرات وجهها كانت جميلة. إنني أعلم أن في الإمكان استخدام الضَّوء للتَّمويه، أيضًا، ولكنك كُنت تشعر بأنه لا يمكن لأيِّ مُعالجة بارعة للضَّوء والجلسة أن تُوصِّل تلك الظِّلال الخفيفة من الصِّدق عبر ملامحها تلك. كانت تبدو مُستعدَّة للإصغاء من دون تحفُّظ ذهني. من دون شكوك، ومن دون تفكير لمصلحتها. وقرَّرت الذِّهاب إليها بنفسي لإعطائها صورتها، وتلك الرَّسائل. أهو الفُضول؟ نعم، بالإضافة إلى بعض المشاعر الأُخرى ربما. لقد أصبح كل ما كان يخصُّ كورتز خارج يدي؛ روحه، وجسده، ومحطَّته، وخُططه، وعاجه، وحرفته. لم يبقَ سوى ذكراه وخطيبته، وقد أردتُ أن أتخلَّى عن ذلك أيضًا للماضي بطريقة ما؛ لأُسلِّم شخصيًّا كل ما تبقَّى منه معي لذلك النِّسيان الذي كان الكلمة الفصل في مصيرنا المُشترك. إنني لا أُدافع عن نفسي، فلم يكُن لديَّ إدراك واضح لما كُنتُ أُريده حقًّا. ربما كان

ذلك باعث إخلاص غيرَ واعٍ، أو إنجازًا لإحدى ضرورات المُفارقة تلك التي تكمُن بين ثنايا حقائق الوجود الإنساني. لا أدري. لا أعلم، لكنني ذهبتُ.

كُنتُ أظنُّ أن ذكراه تُشبه ذكريات الأموات التي تتراكم في حياة كل إنسان.. أثر غامض على العقل لظلال كانت قد سقطت عليها في رحلتها السَّريعة الأخيرة، ولكن أمام الباب الضَّخم العالي، بين البيوت الشَّاهقة في شارع يُشبه في سكونه واحتشامه زقاقًا اعتُني به جيِّدًا في مقبرة، تراءت لي صورته على المحفَّة فاغرًا فاه بنَهَمٍ كما لو أنه سيلتهم كل الأرض بمن عليها من بشر. عندها بُعث حيًّا أمامي، حيًّا بالقدر الذي كانه دائمًا.. خيالًا لا يشبع من الرُّؤى المُشرقة والحقائق المُرعبة. خيالًا أشدَّ قتامةً من ظلِّ اللَّيل، وقد تدثَّر في صورة نبيلة في ثنايا بلاغة عظيمة. بدا طيفه داخلًا معي إلى البيت.. المحفَّة، وحَمَلة الشَّبح، والحشد المُتوحِّش من العابدين المُطيعين، وقتامة الأدغال، والتماعة الامتداد بين الانحناءات المُظلمة، وضرب الطُّبول مُنتظمًا ومكتومًا مثل خفقات القلب.. قلب ظلام قاهر. كانت تلك لحظة انتصار للبَرِّيَّة، اندفاعة غازية مُنتقمة كان عليَّ، كما بدا لي، أن أُبقيها وحيدة هناك لإنقاذ روح أُخرى. وتردَّدت ثانيةً ذكرى ما سمعته يقوله هناك بعيدًا، عندما كانت الأشكال القرينة تتحرَّك خلفي في وهج النِّيران بين الغابات الصَّابرة، وتلك العبارات النَّاقصة التي عادت إلى سمعي، ببساطتها المُرعبة المُنذرة بالشُّؤم. تذكَّرتُ دفاعه اليائس، ووعيده القانط، والمدى الهائل لرغباته الدَّنيئة، ووضاعة، وعذاب وهمَّ روحه العاصف، وفيما بعد تراءى لي أنني شاهدتُ طريقته الواهنة المُتماسكة، عندما قال يومًا: «إن هذه الكَمِّيَّة من العاج تخصُّني الآن، فالشَّركة لم تدفع مُقابلها، لقد جمعتها بنفسي بمُخاطرة

شخصيَّة كبيرة للغاية. وعلى الرغم من ذلك فإنني أخشى أن يُحاولوا ادِّعاءها لأنفسهم. آه، إنها لقضيَّة صعبة، ماذا تعتقد أن عليَّ أن أفعل.. أُقاوم؟ آه؟ لا أُريد أكثر من العدل».

لم يكُن يُريد أكثر من العدل.. ليس أكثر من العدل. قرعتُ الجرس المُثبت أمام باب من خشب الماهوجني في الطَّابق الأوَّل. وبينما كُنتُ أنتظر، كان يتراءى لي مُحملقًا بي من خلال اللَّوح الزُّجاجي في الباب.. مُحملقًا بتلك النَّظرة الكبيرة الواسعة التي تُعانق وتُدين وتكره الكون كله. وبدا لي أنني أسمع الصَّرخة الهامسة «الرُّعب.. الرُّعب!».

كان الغسق يُرخي سُدوله، وكان عليَّ أن أنتظر في غُرفة استقبال فخمة فيها ثلاث نوافذ طويلة تمتدُّ بين الأرضيَّة والسَّقف بَدَت أشبه بثلاثة أعمدة مُضاءة مُغطَّاة. وكانت أرجُل وظهور الأثاث المُذهَبَة المُنثنية تشعُّ بانحناءات باهتة. وعلى المدفأة الرُّخاميَّة الشَّامخة بَدَت معالم بياض شاحب بارد. وفي إحدى الزَّوايا جثم بيانو كبير، كانت تشعُّ من فوق سطحه المُنبسط التماعات ظلماء، فبدا مثل تابوت حجري لامع كئيب. فُتح باب عالٍ وأُغلق، فنهضتُ.

تقدَّمَت يُجللها السَّواد، وبدت برأسها الشَّاحب مُحلِّقةً في الغسق. كانت في حداد. كان قد مضى أكثر من عام على موته، أكثر من عام على وصول الخبر، بَدَت كما لو أنها ستظلُّ في ذكرى وحداد أبديَّين. أخذت يدايَ بيديها، وتمتمت: «لقد سمعتُ أنك قادم»، ولاحظتُ أنها لم تكُن صغيرة السِّنِّ.. أقصد لم تكُن في سِنِّ البنات. كانت لها قُدرة كبيرة على الوفاء، على الإيمان، على المُعاناة. بدأت الغُرفة تُصبح أكثر ظلامًا كما لو أن كل الأضواء الحزينة لتلك

الأُمسية الغائمة قد التجأت إلى جبهتها. ذلك الشَّعر الأشقر، ذلك المُحيَّا الشَّاحب، وذلك الحاجب النَّقي، بَدَت مُحاطة بهالة رماديَّة. نظرت إليَّ من خلالها عينان سوداوان. كانت نظراتهما بريئة وعميقة، واثقة وموثوقة. كان رأسها الحزين يقف بشموخ كما لو أنها كانت فخورةً بذلك الحُزن، كما لو أنها ترغب أن تقول «أنا.. أنا الوحيدة التي أعرف كيف أُقيم عليه حدادًا يليق به»، ولكن بينما كُنَّا لا نزال مُتصافحين، لاحت على وجهها نظرة خذلان رهيب أدركت معها أنها من تلك المخلوقات التي لا يستطيع الزَّمَن العبث بها، فبالنِّسبة لها لم يكُن قد مات إلا بالأمس.. كلَّا، بل في تلك الدَّقيقة نفسها، لقد رأيتُها ورأيتُه في اللَّحظة نفسها من لحظات الزَّمَن.. موته وحُزنها.. رأيت حُزنها في لحظة موته نفسها. أتفهمون؟ لقد رأيتُهُما معًا، سمعتُهُما معًا. كانت قد قالت وهي تلتقط أنفاسًا عميقةً: «لقد عشت»، بينما بَدَت أُذناي المُجهدتان وكأنهما تسمعان بوضوح همسة إدانته المُوجزة الأزليَّة مُمتزجة برنَّة أسفها اليائس. وسألتُ نفسي عمَّا كُنتُ أفعله هناك، وشعور بالذُّعر يجتاح قلبي كما لو أنني هويتُ إلى مكان يغصُّ بالأسرار القاسية العبثيَّة غير الجديرة بمُشاهدة إنسان. وأومأت لي إلى الكُرسي وجلسنا. وضعت العلبة بهدوء على الطَّاولة الصَّغيرة، ووضعتُ هي يدها فوقها: «لقد عرفته جيِّدًا»، تمتمت بعد لحظة من الصَّمت الجنائزي.

«تنمو المودَّة سريعًا هناك»، قُلتُ... «لقد عرفته كما يمكن لرجل أن يعرف الآخر».. «ولقد أُعجبت به» قالت: «كان من المُستحيل أن تعرفه دون أن تُعجب به، أليس كذلك؟».. «كان رجلًا عظيمًا»، قُلتُ بغير ثبات. ثم، وقبل أن تُحملق بي بنظرتها الثَّابتة المُتوسِّلة التي بَدَت مُترقبةً لمزيد من الكلمات

على شفتي، مضيتُ قائلًا: «كان من المُستحيل ألا...»... «تُحِبَّه»، أكملت بشغفٍ وأسلمتني إلى خرس مُروِّع... «هذا صحيح، صحيح، ولكن عندما تعلم أن أحدًا لم يعرفه مثلي. لقد نلت كل ثقته النَّبيلة. لقد عرفته كأفضل ما تكون المعرفة».

«لقد عرفته كأفضل ما تكون المعرفة»، قُلتُ مُكرِّرًا. وربما كان ذلك صحيحًا، ولكن مع كل كلمة كانت تُقال كانت الغُرفة تُصبح أكثر إظلامًا، ولم تبقَ غير جبهتها النَّاعمة البيضاء مُضاءة بنور الإيمان والحب الذي لا يخمد.

«لقد كُنت صديقه»، استمرَّت تقول. «صديقه»، كرَّرتُ بصوتٍ أعلى قليلًا.. «لا بُدَّ أنك كُنت كذلك؛ إذ أعطاك هذه وأرسلك إليَّ، وأشعر بأنني أستطيع التَّحدُّث إليك و... آه، يجب أن أتحدَّث.. أُريدك أنت.. أنت الذي سمعت كلماته الأخيرة.. أن تعلم أنني كُنتُ جديرةً به.. ليس هذا كبرياء... نعم، إنني فخورة بأن أعلم أنني فهمته أفضل من أيِّ شخص آخرَ على وجه الأرض... لقد أخبرني هو نفسه بذلك، ومنذ ماتت أُمُّه لم يبقَ لي أحد.. لا أحد. لكي.. لكي..».

أصغيتُ. أصبح الظَّلام أكثر عُمقًا. لم أكُن مُتأكِّدًا من أنه أعطاني الرُّزمة المطلوبة؛ بل إنني أشكُّ في أنه كان يُريد مِنِّي أن أحتفظ له برُزمة أُخرى من أوراقه. رأيتُ المُدير يتفحَّصها تحت الضَّوء بعد موته. وتحدَّثت الفتاة، يُخفِّف من ألمها يقينها بتعاطُفي، تحدَّثت مثلما يشرب الرِّجال الظَّامئون. كُنتُ قد سمعتُ أن أهلها لم يُوافقوا على خطبة كورتز لها. لم يكُن غنيًّا بما فيه الكفاية، أو شيئًا من هذا القبيل، وفي الحقيقة فإنني لا أدري إذا ما عاش

مُحتاجًا طوال حياته. لقد أعطاني سببًا للاستنتاج بأن نفاد صبره من فقره النِّسبي هو الذي قاده إلى هناك.

«من الذي لم يكُن ليُصبح صديقه بعد أن سمعه يتكلَّم مرَّةً؟»، سمعتها تقول... «كان يجذب الرِّجال من خلال أفضل ما لديهم»، ونظرت إليَّ بجِدَّة.. «تلك موهبة العُظماء»، تابعت، وبدت رنَّة صوتها الخفيض، وقد ترافقت فيها كل الأصوات الأُخرى المليئة بالغموض والحُزن والخذلان التي سمعتها في حياتي.. خرير مياه النَّهر، وأنين الأشجار التي تُحرِّكها الرِّياح، وهدير الحشود، والرَّنين الخافت للكلمات الغامضة التي يصرخ بها عن بُعد، وهمس الكلمات من وراء عتبة ظلام أبدي... «لكنك سمعته! إنك تعرف!»، صرخت قائلةً.

«نعم، إنني أعرف»، قُلتُ وفي قلبي شيء يُشبه اليأس، ولكنني كُنتُ أحني رأسي أمام إيمانها، أمام ذلك الوهم المُنقذ العظيم الذي شعَّ بوهج غير أرضي في الظَّلام، في الظَّلام المُنتصر الذي لم أستطع حمايتها منه.. الذي لم أستطع حتى حماية نفسي منه.

«يا لها من خسارة لي.. لنا»، قالت مُصحِّحةً بسماحةٍ جميلةٍ، ثم أضافت مُتمتمةً: «للعالم»، ومع آخر التماعات الشَّفَق استطعت أن أرى إشراقة عينيها المُغرورقتين بالدُّموع.. بدموع لم تسقط.

«كُنتُ سعيدةً للغاية.. محظوظةً للغاية.. فخورةً للغاية»، وأكملت: «محظوظةً جدًّا، سعيدةً جدًّا لفترة قصيرة، والآن إنني تعيسة إلى.. إلى الأبد».

وقفت، وبدا شعرها الأشقر جاذبًا كل الضَّوء المُتبقِّي في التماعة ذهبيَّة، ونهضتُ أنا أيضًا.

«ومع كل ذلك»، تابعتُ بأسى.. «من كل ما كان يعد به، من كل عظمته، من فكره السَّمح، من قلبه النَّبيل، لم يبقَ شيء.. لا شيء إلا الذِّكرى. أنت وأنا...».

«سنبقى نذكره دائمًا»، قُلت بسُرعة.

«كلَّا»، صرخت قائلةً: «من المُستحيل أن يضيع كل هذا.. أن يضحِّي بمثل هذه الحياة من دون أن يبقى شيء.. إلا الحُزن. أنت تعلم أيَّ خُطط عظيمة كانت لديه. كُنتُ على علم بها أنا أيضًا.. ربما لم أفهمها.. لكنَّ آخرين علموا بها، يجب أن يبقى شيء، كلماته، على الأقل لم تمُت».

«كلماته ستبقى»، قُلتُ.

«ومثالُهُ»، همست لنفسها.. «لقد قيَّمه الرِّجال عاليًا.. وسطعت عظمته في كل عمل.. مثاله...».

«حقًّا»، قُلتُ: «مثالُهُ أيضًا. نعم، مثالُهُ. لقد نسيتُ هذا».

«ولكنني لا أنسى.. لا أستطيع.. لا يُمكنني التَّصديق.. ليس بعد. لا أستطيع أن أُصَدِّق أنني لن أراه ثانيةً. أن أحدًا لن يراه مرَّةً أُخرى أبدًا، أبدًا، أبدًا»، ومدَّت ذراعيها كما لو أنها تتَّبع شبحًا مُتراجعًا، ثم أعادتهما بقبضتين شاحبتين مُطبقتين عبر ضوء النَّافذة الضَّيِّق الخافت. من دون أن تراه أبدًا، لكنني رأيتُه

بما يكفي من الوضوح حينئذٍ. سأظلُّ أرى ذلك الشَّبح ما حييتُ. وسأظلُّ أراها أيضًا، ظلًّا مأساويًّا مألوفًا يُشبه بتلك الإيماءة ظلًّا آخرَ. مأساويًّا أيضًا مُزيَّنًا بتعاويذ باطلة يمدُّ ذراعين عاريتين فوق التماعة النَّهر الجهنَّمي، نهر الظَّلام. ثم قالت فجأةً بصوت خافت جدًّا: «لقد مات مثلما عاش».

«كانت نهايته»، قُلت وفي داخلي يعتمل غضب أخرس: «جديرة بحياته».

«وأنا لم أكُن معه»، تمتمت، وتوارى غضبي خلف شعور من الشَّفقة المُطلقة.

«كل ما يُمكن فعله..»، غمغمتُ قائلًا.

«آه، ولكنني كُنتُ أُؤمن به أكثر من أيِّ شخص على وجه الأرض، أكثر من أُمِّه، أكثر من نفسه. كان في حاجة إليَّ، كُنتُ قد اختزنتُ كل تنهيدة، كل كلمة، كل إشارة، كل نظرة».

شعرتُ كأن قبضةً باردةً تُطبقُ على صدري: «كلَّا»، قُلتُ بصوتٍ مكتومٍ.

«اغفر لي ذلك فقد.. فقد كُنتُ في حداد عليه طوال هذه المُدَّة بصمت.. بصمت.. بقيت أنت معه.. حتى النِّهاية؟ إنني أُفَكِّر بوحدته. لم يكُن بقُربه أحد ليفهمه كما كُنتُ سأفهمه. ربما لم يكُن هناك أحد ليسمع.....».

«حتى النِّهاية»، قُلتُ مُرتجفًا.. «لقد سمعتُ كلماته الأخيرة...»، وتوقَّفتُ مذعورًا.

«أعدها»، تمتمت برنَّة قلب كسير: «إنني أُريد.. أُريد.. شيئًا.. شيئًا.. أحيا به».

كُنتُ على وشك الصُّراخ بها.. «ألا تسمعينها؟»، كان الغسق يُكرِّرها همسةً مُلحَّةً من حولنا، همسةً بَدَت وكأنها تكبر متوعدة مثل الهمسة الأولى لريح صاعدة: «الرُّعب! الرُّعب!».

«كلمته الأخيرة... لأحيا بها»، قالت بإلحاح.. «ألا تفهم؟ لقد أحببته.. أحببته.. أحببته».

جمعتُ شتات نفسي، وتحدَّثت ببُطءٍ:

«كان آخر ما تفوَّهَ به... هو اسمك...».

سمعتُ تنهيدةً خافتةً سَكَنَ بعدها وجيبُ قلبي، توقَّف تمامًا بفعل صرخة جذل ورُعب، بفعل صرخة نصر غامض وأَلَمٍ أبكمَ... «لقد عرفتُ.. كُنتُ واثقةً!».. لقد عَرَفَتْ. لقد كانت واثقةً، وسمعتها تبكي، كانت قد أخفت وجهها بيديها، وبدا لي أن المنزل سينهار قبل أن أستطيع الهروب، أن السَّماء ستسقط فوق رأسي، لكنَّ شيئًا لم يحدث، فالسَّماء لا تسقط لمثل هذه التَّفاهة. وإنني لأتساءل فيما لو كانت ستسقط، لو كُنت أنصفت كورتز بالقدر الذي يستحقُّه؟ ألم يقُل إنه لا يُريد أكثرَ من العدل؟ لكنني لم أستطع. لم أستطع أن أُخبرها. لكان ذلك قاتمًا جدًّا.. قاتمًا جدًّا...».

توقَّف «مارلو»، وجلس وحده صامتًا غير مُحَدَّد الملامح مُتَّخِذًا وضعَ تمثالِ بوذا المُتأمِّل. لم يتحرَّك أحد لفترة.. «لقد فاتتنا بداية الجَزْر»، قال المُدير

فجأةً. رفعتُ رأسي، وَحَجَبَ بعضُ الغيم الأسود المُتراكم مرأى البحر عَنَّا، وانساب التَّيَّار الهادئُ نحو النِّهايات القُصوى للأرض كثيبًا تحت سماء مُلَبَّدة بالغُيوم، مُتَّجِهًا نحو قلبِ ظلامٍ عظيمٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

(١)

(٢)

(٣)

الفهرس..

Notes

[←1]

(1) - ترايريم: سفينة حربيَّة قديمة بثلاثة صفوف من المجاديف.

[←2]

(2) - أرض الغال: فرنسا.

[←3]

(3) - الكونسرتينا: آلة موسيقيَّة تُشبه الأُكورديون.

[←4]

(4) - فاليرن: مُقاطعة اشتُهرَت بنبيذها.

[←5]

(5) - القارَّة: المقصود قارَّة أوروبا.

[←6]

(6) - الكاليبز: جهاز طبي لقياس الأعضاء المُستديرة.

[←7]

(7) - ستون: وحدة لقياس الوزن كانت تُستخدم في بريطانيا، وتُساوي 14 رطلًا.

[←8]

(8) - الميكا: مادة شبه زجاجيَّة تُستعمل عازلًا كهربائيًّا.

[←9]

(9) - باينت: وحدة قياس للسَّوائل تُستخدم في إنجلترا.

[←10]

(10) - مفيستوفيليس: الشَّيطان في مسرحيَّة فاوست لجوته.

[11←]

(11) - الكوارت: وحدة قياس للسَّوائل، وهو يُساوي رُبع جالون.

[←12]

(12) - الأكصور: نوع من التَّماسيح الضَّخمة المُنقرضة.